



من فكر

الزعيم القائد

حول

بناء شباب مصر

مايو/يونيو ١٩٨١

المجلس الأعلى للشبا

دكتور
عبد الحميد حسن
رئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة

من فكر
الزعيم القائد

حول

بناء شباب مصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ

أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ

«صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ»



«أنا أطلب منكم تدريس التاريخ كمادة أساسية للماضى القريب ، ونحن نعيد بناء الإنسان... مع المقومات : مقومات أرض مصر. وقيمتها ، ومثلها... ثم الإيمان بالله سبحانه وتعالى والإيمان بمصر.. وبذلك نبنى فى نفوس أجيالنا المقبلة مناعة .. إن العقيدة الوطنية يجب أن تعلو على العقيدة السياسية » .

الرئيس القائد/ محمد أنور السادات



تقديم

إن الإنسان الفرد مهما أوتى من قدرة وعظمة لا يستطيع بمفرده أن يصنع التاريخ وأن يعبر مراحل التحول الكبرى مالم يكن وراءه ومن حوله جموع شعبية تؤمن به وبما يستهدفه .

والزعامات الكبرى فى التاريخ هى التى استطاعت أن تعيد بناء شعوبها فكريًّا وروحيًّا ومعنويًّا لتعبئ قواها عن قناعة والتزام بضرورة الانتقال بالواقع مما هو فيه إلى ما ينبغى أن يكون عليه .

وبقدر ما تتطور الحياة .. يتحتم أن يتطور الإنسان ، وبقدر ما تتطور المقومات المادية يتعين أن تتطور المكونات الداخلية للأفراد بشرط أن تظل تتحلى بأسمى القيم وأنبل المقاصد الهادفة إلى الخير وسعادة الإنسان .

أى أن هناك علاقة تبادلية ومتسقة بين الحياة والإنسان .. كلاهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به ويتم التوافق والتوازن بينهما عندما يتعادل أثر المعطيات المادية مع أثر المعطيات الوجدانية والروحية فى المجتمع .

والشعوب الحية الخلاقة التى تنطلق من ثراء حضارة عريقة كشعبنا لتعيد صنع واقعها الاجتماعى كله ، يكون بمقدورها أن تختصر الزمن وتقفز من فوق المعوقات إذا ما استطاعت فى نفس الوقت أن تعيد صياغة إنسانها المعاصر ليكون على مستوى التطور المتلاحق والأحداث التاريخية الكبرى التى تخططها وتقود مسيرتها زعاماته الوطنية التى تشق له سبلاً جديدة ومتجددة لحياة أفضل .

وفى مرحلة تاريخية كتلك التى نعايشها الآن والتى تستهدف إقرار السلام وتحقيق الرخاء بعد مراحل تاريخية طويلة من النضال والكفاح ضد الغزاة والمستعمرين ، وبعد دائرة مفرغة من الصراع المرير مع إسرائيل استتبعها استنزاف متواصل لمقومات البناء والرخاء على هذه الأرض .. فى هذه المرحلة ـ تصبح الضرورة الأكثر إلحاحًا

هى إعادة بناء الإنسان المصرى الجديد على نسق يتوافق مع هذا التحول ويتجاوب مع نداءات زعامته التى تستشرف بعميق وعيها وبصيرتها أفق المستقبل الواعد لهذا الشعب .

وانطلاقًا من هذه الضرورة الوطنية حرص الرئيس القائد «محمد أنور السادات» فى أكثر من مناسبة على أن يؤكد على أهمية بناء هذا الجيل .

وفى الآونة الأخيرة أمسك بنفسه بزمام هذه المهمة ليضرب القدوة والمثل لكل الأجهزة المعنية فى هذا المجال . فعقد عدة لقاءات متتابعة مع الشباب ليعطيهم من فكره وتجربته خلاصة الدرس المستفاد وليبلور لهم مجموعة القيم والمبادئ التى ينبغى أن تقوم عليها الشخصية الشبابية الجديدة فى مصر .

فكان حديثه عن البناء الداخلى للإنسان وعن مقومات الشخصية المتكاملة والمتوازنة التى نستعرضها على الصفحات التالية . حتى تكون أمام شبابنا فى كل مواقع العمل الوطنى كنموذج يحتذى يمكن شبابنا من المشاركة فى بناء ذاته . والمعاونة فى بناء ذوات الآخرين من أقرانه . ولا بد من الإشارة أن هذه اللقاءات التى أفاض فيها السيد الرئيس مع أبنائه الشباب من روحه ووجدانه ومشاعره لم تكن لنستطيع إزاءها أن نترجمها إلى كلمات . ذلك أنها كانت تنبض متدفقة بمشاعر أبوية لتترجم عن حصيلة نضال متصل خاضه الزعيم ونقله بصادق حسه لأبنائه . لذلك لم يكن أمامنا إلا أن ننقل بعضًا من هذه الومضات والمشاعر المتأججة . والحصيلة النادرة التى تفضل بها القائد على شباب مصر لتكون أمامهم دليل عمل ينمو بهم . لكل ما فيه خدمة مصرنا العزيزة ورخائها وعزها .

يوليو ١٩٨١م

(دكتور عبد الحميد حسن)
رئيس المجلس
الأعلى للشباب والرياضة

البـاب الأولـــ

الإنســان المصــرى الجـديــد

الفصل الأول

البناء الداخلى للإنسان

من المقطوع به أن الإنسان ليس فقط مجموعة المظاهر المادية الخارجية التى خلقها الله فى أبهى صورة وأجمل منظر ميزه بها على كل الكائنات التى خلقها جلت قدرته ، وإنما هو بالإضافة إلى ذلك مجموعة المكونات النفسية والروحية الداخلية التى تحكم سلوكه وترشد حركته ، ولقد تبين ذلك بغاية الدقة والوضوح فى قوله تعالى : **«إنّا عرضنا الأمانة على السموٰات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان»**

«صدق الله العظيم»

أى أن إنسانية الإنسان تتحقق بقدر ما تمتلكه من قيم الحق والخير والجمال ، وبقدر ما يحتملها من عوامل الإيمان والثقة والمقدرة ، وكلها وغيرها قيم معنوية تساهم فى تشكيل البناء الداخلى للإنسان .

أهمية البناء الداخلى للإنسان :

إن إعادة البناء الداخلى للإنسان الذى يعنى إعادة تشكيل قِيَمِهِ المعنوية والوجدانية ليرتفع بمستوى ذاته إلى مستوى المسئولية الإنسانية الشاملة بأبعادها الوطنية والاجتماعية المتكاملة إنما يحقق هدفين متكاملين فى آن واحد :

الهدف الأول : على مستوى المجتمع الذى يعيش فيه :

ذلك أن بناء الإنسان يعد ضرورة حيوية لإحداث التقدم الاجتماعى المستهدف من ناحية ، ثم لمعايشة هذا التقدم والتكيف معه من ناحية أخرى .

وفى هذا المعنى يقول الرئيس القائد فى خطابه للمؤتمر القيادى الأول لشباب

الحزب الوطنى عام ١٩٧٩م :

«ما فائدة بناء المصانع أو زرع ملايين الأفدنة أو بناء البنايات الضخمة ، ثم نهدم الإنسان ؟ » .

«إن الأموال بغير بشر قادر أوراق مكدسة فى خزائن ، والآلات مهما كانت حديثة ، أجساد هامدة بغير يد الإنسان الطاهرة ، ولو أخصبت الأرض تظل بورًا مالم يمسها عمل الإنسان » .

ويعود الرئيس ليؤكد هذه المعانى فى لقاءاته بشباب الحزب عام ١٩٨١ فيقول :

«إذا استطعنا أن نضع معالم واضحة لبناء الإنسان من الداخل .. نستطيع أن نواجه بهذا الإنسان المصرى كل شىء وأن ننتصر على كل شىء » .

ويعود فيقول :

«عايز كل واحد منكم يبنى من الداخل ، وكمان يستطيع أن يبنى الآخرين من الداخل مش بس انتم اللى تبنوا من الداخل ، لأن هو ده الأساس عندى .. بعد هذا حتواجهوا فى السياسة مهما يكن من مشاكل حتواجهوا فى الحياة كل ما يقابلكم من عقبات .. أنا عايز الإنسان المصرى الحقيقى اللى واخد من تراث هذه الأرض .. بل واخد من قيم هذه الأرض .. اللى واخد سبعة آلاف سنة وراه ، وأول دولة وأول حكومة وأول مدينة » .

وفى المغزى المستهدف من وراء هذا البناء للإنسان تمهيد يقوله الرئيس فى عبارة مركزة :

«إنه الإنسان المصرى الحقيقى اللى يعبر عن مصر .. ولا يسمح أبدًا بما فيه من جوه من بناء قوى .. ويقف ويواجه ويثور ويهاجم إذا ما حد فكر أن يعود بمصر إلى فترة الألفى سنة الأخيرة قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. يعنى كيف تطور مصر بأبنائها » .

ولعل القيمة المستفادة من مقولات الرئيس السالفة هى أن نشاطات المجتمع ووسائله على طريق البناء والتقدم إنما تستهدف كلها تحقيق رفاهية الإنسان

المواطن .. وإذا كانت هذه النشاطات كلها من أجل الإنسان فهى فى نفس الوقت لا تتحقق إلا به شريطة أن تتكامل مقومات بنائه الداخلى الذى تحفظ عليه توازنه الاجتماعى وقدراته الوطنية . ولعل أصدق تعبير عن هذا المعنى هو ما ألمح إليه الرئيس القائد بقوله :

«كنت أحس أن المجتمع المصرى لا بد له من العودة إلى قيمه الأصلية التى حفظت عليه وحدته وشخصيته عبر آلاف السنين وأن بناء الإنسان يجب أن يكون هو الهدف » .

ومن هنا يتضح الهدف الاجتماعى من البناء الداخلى للجيل الجديد بوصفه القوة المحركة لانطلاقة المجتمع لتحقيق الأهداف الوطنية عبر مراحل التحول التاريخية الكبرى .. ذلك أن الأهداف العظيمة تتناسب طرديًّا مع احتياجاتها من الجهد المقتدر . وكلما كانت القوى البشرية الجديدة متكاملة ومتوازنة داخلية كلما كان عطاؤها متوافقًا مع ضرورات ومستلزمات حركة التطور الاجتماعى .

الهدف الثانى : على مستوى الفرد :

ذلك أن استكمال الطاقات المعنوية والقيمية للذات الإنسانية إنما يتسامى بها إلى مستوى الكمال ويضعها فى المكانة التى أرادها الله لها استخلافًا فى الأرض واستمرارًا للحياة .

وإذا كانت الحياة كلها قد خلقت من أجل الإنسان فإن بقاءها وتطورها لا يكون إلا بالإنسان .

أى أن الذات الإنسانية هى محور الحياة على الأرض .. وبقدر ما يكون البناء الداخلى للإنسان سليمًا ومتكاملاً . بقدر ما تكون الحياة عظيمة ورقيها صاعدًا وشامخًا .

وتكامل البناء الداخلى للإنسان الفرد يحقق لذاته عدة مقومات هى فى مجملها تعد من ضرورات الحياة الشخصية الناجحة للإنسان الفرد . من بين هذه المقومات :

(١) اتـزان الشخصيـة :

بمعنى أن تتعادل وتتوافق داخل الإنسان كل القيم معنوية كانت أو مادية ، وأن تكون نظرته للأشياء هادئة ومتعمقة ، ولا تتحطم مشاعره على صخرة الانبهار بالمرئيات السطحية أو الشكلية دون تعمق ، وألا يطغى واحد من جوانب الحياة على دوافعه السلوكية ويطمث ما دونها من جوانب .

وفى هذا المعنى يقول الرئيس فى بساطة :

«إذا ما غذينا الروح والعقل والجسم علشان نؤهلهم لأداء الأمانة أو أداء الخلافة وما علينا فيها من أمانة ومسئولية أمام الله نحو هذه الأرض ، إذا ما استطعنا أن نقيم هذا التوازن بين الثلاثة عناصر الأساسية فى خلقتنا مباشرة يشعر الإنسان من داخله بالتوازن .. يعنى تسمعوا مثلاً يقول ده فلان ده راجل متزن .. يعنى راجل ما يقولش الكلمة إلا بحساب .. ويبقى له قيمة .. ده راجع لأن هذا النوع من البشر لا بد وأن يكون من داخله هذا التوازن .. وهذا التوازن يا أولادى بييجى بالممارسة .. » .

(٢) المقـاومـة الداخليـة

وتعنى أن ينتصر الإنسان على نفسه أولاً فى جنوحها نحو الخطأ أو الخطيئة ، ذلك أن معرفة الإنسان مع نفسه داخليًا هى مضمونها صراع بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، بين الجمال والقبح ، أى بين القيم السامية فى الحياة وبين القيم الساقطة فيها .. فإذا ما نمت قدرة داخل الإنسان على المقاومة وانتصرت بقيم الحياة الرشيدة استطاعت هذه المقاومة أن تصمد لكل مشاكل الحياة وأن تقاوم كل مغريات الباطل .

ويقول الرئيس السادات فى هذا المعنى :

«بعد المدنية وما أضافته من أعباء وما تسببه من عقد .. نحن مطالبون بقوة مقاومة مضاعفة من داخلنا علشان نواجه كل التيارات الوافدة .. اللى بتجينا من بره علشان تقتلعنا من جذورنا ، وإذا ما سهينا احنا عن الأمانة اللى علينا أن نؤديها

بإخلاص ـ بنتوه ويستطيع أى إنسان أن يتصرف فينا كما يشاء .. وده لن نسمح به يا أولادى مرة أخرى » .

ويعود الرئيس السادات ليؤكد هذا المعنى بقوله :

« أنا لا أحب الضعيف .. ولا أحب واحد منكم يكون إنسان ضعيف لأن ده ربنا سبحانه وتعالى اللى قال هذا .. ما أحبش الإنسان الضعيف أبدًا .. أبدًا .. ومن حقنا ونحن نملك إرادتنا وكل شيء النهارده ـ ومن حقنا أن نكون جميعًا وخصوصًا بما خلفنا من تراث وقيم وبما وهبته لنا هذه الأرض وتهبه .. من حقنا أن نكون أقوياء وأن نزداد يوم بعد يوم قوة .. » .

(٣) السـلام الروحى :

عندما تستقر القيم الإنسانية فى وجدان الإنسان الفرد ـ وتنفذ بصيرته الواعية إلى عموم الأشياء ـ ويتوازن رد فعل تجاه معطيات الحياة فإنه بذلك يكون قد امتلك سلامًا روحيًا مع نفسه ومع الآخرين .

وإذا كان السلام الروحى يحقق التوافق داخل الذات الإنسانية ـ ويزيل التناقض من داخلها فإنه فى الوقت ذاته يحقق التكيف الاجتماعى ويسقط عوامل الصراع داخل المجتمع ليستقر السلام الاجتماعى الشامل بين أفراده .

وفى ذلك يقول الرئيس السادات :

« علاقتكم بأنفسكم أو ما أسميه أنا بالسلام الروحى اللى هو أساس علشان يكون لك إنتاج وعطاء للآخرين ـ لازم أنت تكون عايش مع نفسك فى سلام روحى .. ولازم تكون عايش مع ربك فى سلام روحى .. وعايش مع الناس اللى أنت بتختلط بيهم فى سلام روحى .. ده عايز أبنيه جواكم لأن ده بييجى قبل كل شيء » .

ومن خلال هذا العرض لمقولات الرئيس السادات تبرز إلى سطح المعرفة أهمية وضرورة البناء الداخلى للإنسان كغاية شخصية وهدف اجتماعى أو كما يقول عنه الرئيس القائد :

« البناء الداخلى هو المنطلق لأى شيء نريد أن نحققه سواء كأفراد عاديين فى الحياة بينكم وما بين جيرانكم وزملائكم وعائلاتكم ومجتمعكم . أو سواء فى عملكم اللى حتدخلوا فيه .. سياسة أو اقتصاد أو أى عمل آخر .. لا بد قبله من بناء داخلى .. بناء داخلى يعنى إيه ؟؟ » .

« يعنى بندخل على كل هذه الحياة من باب ضخم أنت فيه محصن تمام التحصين ضد أى هزات نفسيه . أو ضد أى إحساس بالفشل أو ضد أى ضعف يتعرض له الإنسان » .

الانتماء وأثره فى تكامل الشخصية :

الانتماء أو الارتباط بشيء ما .. يعنى التوحيد مع هذا الشيء . والألتزام به . بل وجعله من الأصول التى يرتبط بها الفرد ارتباطًا لا يقبل التجزئة أو التردد بحيث يظل المنتمى والمنتمى إليه كلا عضويا متكامل التأثر والتأثير بكل الأشكال المادية والعضوية . وغالبًا ما يكون هذا الانتماء إلى عقيدة أو فكر أو مبادئ يلتحم فيه الإنسان بكل حواسه البشرية .

والتوحيد هو الذى يقيم العلاقة العضوية الوثيقة التى يتولد منها الحرص الدائم على بناء هذه الرابطة قوية ومستمرة بغير انفصام . كما أن الالتزام هو الذى ينشئ الإحساس بالمسئولية تجاه الضرورات والمستلزمات الناتجة عن هذا الانتماء .

فالانتماء إلى العائلة يعنى التوحد معها والإحساس بالمسئولية تجاهها وهكذا الانتماء إلى المجتمع .

والإحساس بالترابط والشعور بالمسئولية هى من سمات الشخصية المتكاملة وكلما يتصاعد البناء الداخلى للشخصية كلما كان انتماؤها أكبر عمقًا وأكثر اتساعًا .. حيث يبدأ الانتماء بالعائلة ثم يتدرج إلى الجماعة الصغيرة فالموطن فالمجتمع والإنسانية كلها .

وفى عبارة بليغة يتحدث الرئيس السادات عن الانتماء إلى الأرض والإنسان فيقول :

«أول ما عرفت الالتزام يا أولادى .. عرفته هنا بالنسبة لهذه الأرض .. هذه الأرض بما توحي به .. بما لها من قيم .. هذه الأرض فعلاً هى التى تعطى للإنسان روح الانتماء وكما سمعتمونى أقول أول ما فتحت عيني على مصر كانت ميت أبو الكوم هى مصر كلها بالنسبة لى . لأنه لغاية ست سنوات لم أترك القرية وست سنوات هنا يعنى بدأت أتفتح على الدنيا .. فكان كل المدى أو كل الحدود التى أتجول فيها هى ميت أبو الكوم .. كانت هى مصر بالنسبة لى .. ولما ذهبت للقاهرة وبدأت أكبر .. وبدأت أدخل المراحل المتتالية من التعليم بدأ الانتماء الذى من هنا .. الانتماء بدأ هنا أولاً للأرض فى ميت أبو الكوم .. بدأ هذا الانتماء يتحول أو يتضخم .. لأن هذا سيظل الأساس .. ينمو ويكبر ويتضخم من أجل مصر كلها» .

ثم يضيف قائلاً :

«من أجل هذا لا بد أن نبدأ من انتماء معين من داخلنا لمصر .. المطلوب هو الانتماء أى أننا جميعًا ننتمى ونفنى وفى كلمة واحدة «مصر» لمصر فوق كل الزعامات .. فوق كل الأحزاب .. فوق كل الأيدولوجيات .. فوق كل شيء» .

الآثار الناتجة عن الشعور بالانتماء :

الشعور بالانتماء ليس معنى مجردًا وإنما هو قيمة عملية تجد صداها فى الواقع العملى على مستوى النشاط الاجتماعى انطلاقًا من كونه يعبر عن ترابط ومسئولية . ومن ثم كان الانتماء يولد آثارًا لها مدلولات اجتماعية نشير إليها فيما يلى :

١ ـ حفز روح العمل والعطاء من أجل المجموع . ذلك أن شعور الفرد بأنه جزء من كل يسقط من داخله روح الأنانية والنزعات الفردية . ويدفعه إلى أن يقدم جهده لصالح المجموع الكلى طواعية واختيارًا .

وفى ذلك يقول الرئيس السادات :

«كما قلت لكم .. هى حب .. إيمان .. عطاء .. تمسك بروح العائلة . لأن احنا جميعًا مع بعض بنوزع على نفسنا المسئوليات والواجبات فكل منا بيعطى

عطاء .. نشأت أشوف هذا فى القرية - وهذا هو الذى كون عندى فعلاً أساس البناء الداخلى فطلعت أؤمن بالله سبحانه وتعالى إيمانًا كاملاً - وطلعت أحس بالانتماء .. بانتماء هو أروع ما يملأ نفسى خصوصًا فى الساعات التى أواجه فيها متاعب الحياة » .

٢ ـ الاقتناع بأهمية التمسك بالقيم الاجتماعية والحضارية السائدة داخل المجتمع - وعدم السماح بأى تيارات فكرية وافدة أن تنبت أو تنمو على أرضه باعتبار أن ذلك يتنافى مع روح الانتماء والوحدة الوطنية والسلام الاجتماعى وتخلق تنافرًا بين شرائح المجتمع يؤدى إلى تفككه الأمر الذى يتعارض مع الشعور بالمسئولية الناجمة عن الانتماء الوطنى والتى تقتضى دفع مسيرة الحركة الاجتماعية إلى الأمام فى خط صاعد دون السماح بتراجعها أو العودة بها إلى الوراء .

وفى ذلك يقول الرئيس السادات :

«إن المجتمع المصرى لا بد له من العودة إلى قيمة الأصيلة التى حفظت عليه وحدته وشخصيته عبر آلاف السنين - إن الإنسان الحقيق هو الذى يعبر عن مصر ولا يسمح أبدًا بما فيه من داخله من بناء قوى .. يقف يواجه ويتحدى ويهاجم إذا ما فكر أحد أن يعود بمصر إلى ما قبل ثورة ٢٣ يوليو .. » .

ثم يقـــول :

«الأمانة اللى حنسلمها لكم .. الأمانة يا أولادى فى أيديكم وما تسمحوش أبدًا فى يوم من الأيام أن يمثل مصر - أو يحكم مصر - أو يتحدث باسم مصر وجه غير مصرى فى أصالته وفى قيمه .. وفى روح القرية » .

٣ ـ الصمود من أجل المجتمع والدفاع عنه وتطويره خاصة وأن مراحل التحول الاجتماعى تمتلئ بكثير من المشكلات والمعوقات كما يعترضها كثير من الرافضين والمشككين ومن ثم يتعين مواجهة كل ذلك بمزيد من الإصرار على إنجاز الأهداف الوطنية من خلال الإحساس بمسئوليات الانتماء إلى هذا المجتمع .

وعن خلاصة التجربة العملية فى هذا المجال يقول الرئيس السادات :

«ساعة ما أعلنونى بقرار الفصل والتجريد من الرتب - والبوليس السياسى

استلمنى .. أؤكد لكم يا أولادى أنه لم يكن عندى ذرة اهتزاز أبدًا .. ليه ؟؟ لأنه كان هذا الأمر منطق مع ما اخترته لنفسى من طريق فى الحياة .. هذا الطريق اللى أنا اخترته لنفسى علشان أحقق ما أحلم به وما أنا فى شديد الشوق إليه ..

هذا الوعد ماشى مع الخط لأنى باشتغل بالسياسة واللى بيشتغل بالسياسة لازم يتحمل نتيجة عمله .. ولازم يكون أولاً أهل لأن يصمد علشان ينجح فى الطريق اللى هو ماشى فيه ..

هى دى سببها إيه ؟ زى ما قلت لكم أنا سببها الانتماء سببها أنى اخترت لنفسى طريق على أن أتحمل تبعات ما ألقاه وأنا ماشى فيه » .

وهكذا يتضح أن روح الانتماء إلى الأرض والمجتمع تبنى فى داخل الإنسان قيمًا إجتماعية صاعدة تسهم فى توازن وتكامل شخصيته .

كما يتضح من العرض السابق أن البناء الداخلى للإنسان بمقوماته الشاملة يعد ضرورة ملحة تحتل الأولوية الأولى فى إعادة بناء المجتمع فى هذه المرحلة التاريخية العظيمة التى يرسى فيها دعائم الديمقراطية ويصنع السلام ويحقق البناء والرخاء .

الفصل الثانى

مقومات الشخصية المتوازنة

« بناء العقل والروح والجسد »

لقد أثبتت العلوم الإنسانية والتجريبية أن هناك عاملين يشتركان معًا فى تكوين الشخصية الإنسانية وإن اختلفت النظريات حول دور ومدى كل منهما فى بلورة القدرات والمكونات العامة للإنسان . وهذان العاملان هما : عامل الوراثة وعامل البيئة . والرأى الغالب فى هذا المجال يؤكد أن العوامل الوراثية يتوقف دورها عند تحديد الحد الأدنى الذى يمكن أن تصل إليه القدرات الإنسانية ولا يمكن تجاوزه أما العوامل البيئية فهى التى تخلق وتنمى هذه القدرات إلى الحد الذى ترسمه عوامل الوراثة .

وبمعنى آخر فإن العوامل الوراثية تنشئ الاستعداد وتحدد سعة القدرة . ولكنها تتركها فارغة إلى أن تجىء العوامل البيئية فتملأها إلى الحد الذى تستطيعه .

ومن هنا يمكن القول إن العوامل البيئية أو المكتسبة هى صاحبة الدور الفعال والمؤثر فى تكوين الشخصية وتحديد ملامحها وفقًا لمعطياتها وانعكاساتها وتأثيراتها على الذات الإنسانية منذ نشأتها .

وبقدر مستوى الوسط الاجتماعى ــ البيئة ــ ونوعيته . وتقدير حرصه على تنمية مهارات وملكات الفرد . وبقدر عمله على تزويده بالخبرات والمعارف الإنسانية والقيم الأخلاقية والسلوكية بقدر ما تتحدد نوعية هذه الشخصية التى تعايش هذا الوسط .

وانطلاقًا من هذه الحقيقة العلمية فإنه يقع على المجتمع مهمة العمل على بناء الشخصية الشبابية على نسق متكامل وتوازن فى أبعادها المتنوعة .

وانطلاقًا من هذه الحقيقة أيضًا كانت تحليلات وتوجيهات الرئيس السادات عندما حدد المهام والمحاور التى يتعين العمل عليها لتوفير مقومات الشخصية الشبابية المتوازنة .

وفى ذلك يقـول :

«كيف نعد أنفسنا ؟ احنا أولاً مكونين من إيه ؟ الإنسان منا يتكون من روح وعقل وجسد .. وكل له مسئولياته من كل هذه الحاجات .. بديهيات .. ولكن محدش كان بيقول لنا عليها أبدًا .. هذا التكوين لم يأت عبثًا أبدًا .. طيب علشان هذا التكوين يؤدى ما يريده ربنا سبحانه وتعالى .. جعل أن فيه روح وعقل وجسم وكل له مسئوليته .. فإذا ما غذينا الروح والعقل والجسد علشان نؤهلهم لأداء الأمانة أو أداء الخلافة وما علينا فيها من أمانة ومسئولية أمام الله نحو هذه الأرض . إذا ما استطعنا أن نقيم هذا التوازن بين الثلاثة عناصر الأساسية فى خلقتنا مباشرة فيشعر الإنسان من داخله بالتوازن » .

وهذا يكون الرئيس السادات قد حدد مقومات الشخصية المتوازنة على سبيل الحصر ألا وهى الروح والعقل والجسد فتعالوا معًا لنلق نظرة على كل من هذه المقومات الثلاثة :

أولا : الـــروح

يقول الله جلت قدرته «**قل الروح من أمر ربى . وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** »
«**صدق الله العظيم** »

والمعنى المستفاد من قوله سبحانه وتعالى هو « أن البحث فى كنه الروح وماهيتها وطبيعتها غير جائز » لماذا ؟؟

أولاً : لأنها سر من أسرار الله اختصه لنفسه فلا يطلع عليه أحد .

ثانيًا : لأن قدرة العقل البشرى المخلوق على استيعاب العلم والمعرفة لا ترقى إلى

فهم واستيعاب سر من أسرار ذات الخالق . لأن المحدود لا يتسع لغير المحدود .

ويؤدى ذلك أن مدار البحث فى البناء الروحى إنما ينصب على غذاء الروح . أى على القيم الدينية والروحية فحسب . فيأتى فى مقدمة القيم الدينية والروحية « الإيمان » باعتباره مصدرًا لكل المعانى الروحية السامية .

فما هو الإيمـان :

الإيمان هو أن يعتقد الإنسان يقينًا فى الله وكتبه ورسله واليوم الآخر . والإيمان هو أن تعبد الله كأنك تراه .. فإن لم تكن تراه فإنه يراك . والإيمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

أى أن من أهم دعامات الإيمان التى يقوم عليها هى الإيمان بوحدانية الله . ثم الإيمان بالغيب . ثم ترجمة ذلك كله فى قيم سلوكية تضبط وتحكم مفاهيم الحياة الاجتماعية كلها .

ذلك أن عقيدة الإيمان ليست مجرد تقرير ميتافيزيقى لعقيدة الألوهية . ولا هى مجرد إثبات فلسفى لفكرة عقلية . وإنما هى منطلق كامل لمنهج فى الفكر ومذهب فى البناء الاجتماعى .

وفى ذلك المعنى يقول الرئيس السادات :

« الإيمان هو طوق النجاة للفرد حينما يتوه فى ماديات الحياة فيلجأ إليها .. لأن دى التركيبة اللى أرادها الله سبحانه وتعالى اللى خلقنا علشان نقدر نتعامل مع أنفسنا ومع أخواننا ومع الرسالة التى كلفنا بها .. ولكى لا تصدأ الروح .. عليكم بالعقيدة والإيمان يا أولادى » .

وهكذا يستطيع المتعمق فى جنبات الحياة الاجتماعية الإسلامية أن يرى كثيرًا من النتائج والانعكاسات على واقع الحياة كلها نتيجة للإيمان الصادق بكل أركانه وتطبيقاته .

ولنعط بعض النتائج التى ألمح إليها الرئيس فى أحاديثه إلى الشباب :

١ ـ الإيمــان والتحرر الوطنى :

عقيدة الإيمان بالله الحكيم القادر تستجمع مشاعر الولاء والخضوع فى عقل الإنسان المسلم ونفسه وتردها إلى الله وحده . ثم تحيل هذه المشاعر كلها إلى طاقة عمل فى إطار منهج الله الذى أمر المؤمنين بأن يقاتلوا الذين يقاتلونهم ، وأن يهبوا لنصرة الدين والدفاع عن الأرض والكرامة خالصى النية لله الذى يقول : **« ولينصرن الله من ينصره »** .

ولقد تحقق هذا الفهم الإيمانى عملاً فى معركة التحرير عام ١٩٧٣م . حيث تعالت نداءات الإيمان على أرض سيناء فكان نصر الله مؤزرًا حينما انشقت كل الحناجر والقلوب بنداء (الله أكبر) وفى شهر من أشهر الإيمان الذى يصوم فيه المسلمون ... فبرغم الصيام فى الحسابات المادية للقدرة البشرية على القتال ، ولكن الإيمان بالله وبالهدف مكن لشباب مصر من أبناء جيشها وقياداتها أن يحققوا النصر وفى رمضان الكريم .

وعن هذه اللحظات القتالية الإيمانية من أجل التحرر الوطنى يقول الرئيس السادات :

« الكمبيوتر قال فى أوربا .. فى أمريكا .. فى كل العالم .. الكمبيوتر قال إن مصر العربية جثة هامدة لخمسين سنة مقبلة بس فيه حساب لا يدخل الكمبيوتر .. ده هو اللى اسمه الإيمـان .. عوضنا الفرق بين السلاح الروسى المتخلف اللى فى أيدينا عن السلاح المتقدم اللى عند اليهود .. عوضوها إخوانكم وأولادكم وأمهاتكم بكلمة « الله أكبر » .

٣ ـ الإيمان وقوة الإرادة :

عقيدة الإيمان بالله هى التى تطبع الإنسان المؤمن بمواقف الصلابة وقوة الإرادة وروح الكفاح من أجل الحق والعدل وتزوده بطاقات كبرى لا تنثنى فى ميادين العمل المختلفة من أجل الله والوطن .

وفى ذلك يقول الرئيس السادات :

« بالإيمان نهز الجبال حقيقة .. وأنا فى حياتى صدقونى يا أولادى لما أقول لكم وأحكى لكم التجربة .. والله يا أولادى اللى بيملك الإيمان يبقى أقوى من الجبال - حقيقة الإيمان يعطى ثقة واطمئنان ودخول على الأحداث بلا أى هيبة ما دام بينك وبين ربك ونفسك وبين الناس سليم بتدخل ولا يهمك أى شىء أبدًا » .

٤ ـ الإيمـان والقيمة الإنسانية :

إن الإيمان بمعطياته الروحية ومنهجه الاجتماعى يقيم فى أعماق الإنسان الفرد ضابطًا لسلوكه وعلاقاته مع الآخرين فيقدم واجباته على حقوقه . وتكون حركته تعبيرًا عن قيمة تفضيل الإنسان أمام الله سبحانه وتعالى عن غيره من الكائنات لاستخلافه على الأرض ليعمرها ويطورها وفق ما أراده الله لها .

وفى ذلك يقول الرئيس السادات :

« نحن مستخلفين ومؤتمنين .. وأقل شىء أمام هذا التكريم ألا تهون النفس البشرية . وألا يكون فى سلوكنا فى أى لحظة من اللحظات ما يتناقض مع إنسانية الإنسان هذا الذى فيه من روح الله سبحانه وتعالى .. وسخر لنا ما فى الأرض ..

طيب علينا أن نأخذ أنفسنا بهذا الواجب مأخذ الجد .. وأن نقابله بالحمد والشكر .. ولن يكون هذا الحمد والشكر فى أوجه ومنتهاه إلا إذا انهضنا بما أرادنا الله سبحانه وتعالى أن ننهض به على هذه الأرض التى نحن مستخلفون عليها وهى مصر » .

وعلى ذلك فإذا كان الإيمان يدفع الإنسان الفرد إلى الاستمساك بأسباب الاستعلاء الروحى فى كل حركته ومعاملاته ويحرص دائمًا على أن يكون مواطنًا إيجابيًا صالحًا ونافعًا لنفسه ولمجتمعه ومتحليًا بكل القيم الإنسانية العليا التى تجد مصدرها فى الإيمان والقيم الروحية الرفيعة .

فما هى مجموعة القيم الرئيسية التى تشكل البناء الداخلى المتوازن للإنسان والتى تقوم على المعطيات الروحية النبيلة .

القيم الروحيـــة :

« لا بد من مقومات أساسية تفسر لنا خليقتنا وتفتح لنا عقولنا أكثر .. وأؤكد لكم أن ما أوصانا به الله سبحانه وتعالى .. هو انتصار إرادة الإنسان وبالحب والسلام .. والقيم . لأن فى هذه اللحظة سوف يشعر الفرد أنه أقوى الأقوياء » .

ويقول الرئيس أيضًا :

« نحن نبنى مصر بقيم قائمة عندنا فعلاً ولسنا فى حاجة لأن نستوردها .. ولا بد أن يكون لكل منكم عطاء .. هذا العطاء أول ما يكون للعائلة الصغيرة ثم العائلة الكبرى وهى مصر .. ومن هذا المدخل يتحقق معنى الحب والسماحة التى هى من تراث هذه الأرض .. » .

ومن هذه العبارات الموجزة للرئيس القائد يمكن أن نستخلص بعضًا من القيم الروحية التى أشار إليها والتى بها تتحقق كل معانى الحب والخير والسلام .

ولنستعرض معًا بعضا من هذه القيم الضرورية اللازمة للبناء الداخلى للإنسان الفرد .

١ ـ يقظـة الضمـير :

يقظة الضمير أو الضمير الحى هو الذى يخلق الرقابة الداخلية لدى الإنسان . ويقيم سلوكه وحركته . ويخلق البواعث الذاتية على الالتزام بقيم المجتمع وقضاياه . ويدفع الإنسان الفرد على إتقان عمله حتى ولو بعيدًا عن حراسة الدولة والقانون لأنه يعلم أن الله يرى .

ومن أجل ذلك كان الضمير الحى هو من أولى المقومات الأساسية لبناء الإنسان المصرى الجديد لأنه بقدر يقظة الضمير بقدر انطلاقها إلى سائر الفضائل الخلقية ويكون استعدادها للالتزام لكل القيم الاجتماعية .

٢ـ العدل الاجتماعي :

العدل الاجتماعي كقيمة أخلاقية اجتماعية وروحية يجيء ضمن مفهوم شامل لمجموعة القيم التي أرساها الإيمان فى نفوس الجماعة المؤمنة كالصدق والأمانة والوفاء بالعهد .

والعدل فى مفهوم الإيمان الروحي لم يكن مجرد فكرة نظرية بعيدة عن التطبيق العملى وإنما كان أسلوبًا للحياة للسلوك لأنه نابع عن عقيدة ويمثل خلقًا لا ينفصل عن طبيعة المجتمع ولا ينفصل عن وجوده . ومن ثم أخذ طريقه إلى واقع الحياة .

ومن هنا يقوم العدل الاجتماعي على عنصرين رئيسيين هما :

- التحرر الوجدانى المطلق الذى يدفع عن الإنسان الخوف أو الرهبة أو السلبية ويخلص الإنسان من دوافع الإذلال أو أسباب الحط من كرامته أو التنازل عن حقوقه أو التهاون فى شأن نفسه .
- المساواة المطلقة بين الناس فقيرهم وغنيهم وصغيرهم وكبيرهم والناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمى إلا بالتقوى .

لعل هذا المفهوم للعدل الاجتماعي فى مجال التطبيق يجد مضمونه فى بعض جوانبه فيما يسمى سيادة القانون التى أرسى دعائمه الرئيس السادات بعد ثورة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١ .

٣ـ التكافل الاجتماعي والإنسانى :

التكافل الاجتماعي كقيمة دينية يعمل على تربية روح الفرد وضميره وتنمية مواهبه الخاصة واستعدادته للعمل والإنتاج . كما يعمل أيضًا على تكوين الأسرة وتنظيمها وحمايتها ثم ينظم العلاقات الاجتماعية والمعاملات والأوضاع الاقتصادية التى تشمل المجتمع كله ومن ثم فإن التكامل له أبعاد ثلاث :

أولها : بين الإنسان ونفسه حيث يسأل الإنسان عن نفسه أمام الله فعليه أن يذكيها ويطهرها لأن ذلك مناط الثواب والعقاب وفى ذلك يقول الرئيس السادات :

«أنا عايز الإنسان الحقيق .. تعكسوه أنتم ..تبنوه أنتم تبقوا أنتم الأداة

لإخوانكم الآخرين . والقدوة اللى منكم . لأن أروع شىء ينتقل بالقدوة .. وأن يعرف كل منكم مسئولياته والأمانة اللى فى عنقه فى علاقته مع ربه ومع نفسه ومع الناس » .

وثانيهما : بين الإنسان وعائلته حيث يسأل الإنسان عن مدى رعايته واهتمامه بأسرته وكيفية معاملته وكفاءته لها . ويقول الرئيس السادات فى هذا المعنى :

« أقول لكم بصراحة يا أولادى .. الوالدين .. أول حاجة فى السلوك حيسأل عليها كل شاب من أولادى .. الوالدين وحيسأل عليها ليه ؟ أصل دى بقى ما قريتهاش فى الكتب إنما دى بالخبرة والتجربة .. الولد اللى ما بيحسنش معاملة والديه فاشل فى الحياة .. لأن الله يقول ما معناه يا إنسان يا بنى آدم ياللى خلقتك .. ياللى خليفتى فى الأرض .. وياللى حطيت من روحى فيك .. وياللى كرمتك وسخرت لك كل هذا .. أحسن معاملة والديك .. » .

وثالثهما : بين الإنسان والمجتمع لأن القيم الدينية والروحية تستمد مضمونها على اعتبار أن الأفراد جميعًا يعيشون داخل مجتمع .. ومن هنا اشتملت على معانى متوازنة بين رعاية حقوق الإنسان الفرد ورعاية حقوقه وتأمين حرياته وتهيئة المناخ الفكرى والحياتى الذى يعينه على انطلاق ملكاته ومواهبه ، وبين رعاية المصالح الكلية للمجتمع والحفاظ عليها وتقديمها فى الرعاية على المصالح الفردية .

ويكفى ما يردده الرئيس السادات دائمًا تأكيدًا لهذا المعنى عندما يقول :

« مصر أولاً وأخيرًا .. مصر قبل كل شىء .. وبعد كل شىء » .

وهكذا يبين أن الإيمان بمعطياته الروحية يحقق للشباب عناصر التكامل فى شخصيته لأنه يغرس فى داخله فضائل لا تنفصل عن الحياة بل تتجاوب معها وتعمل على تقدمها ورقيها من أجل سعادة الإنسان والمجتمع .

ثانيا : العقـــل

العقل والتعقل هو السمة التى تميز الإنسان عن باقى الكائنات الحية . ومستوى تطورها .

ومن هنا فإن الاهتمام بالعقل الإنسانى باعتباره أهم عناصر الذات الإنسانية يعد ضرورة حيوية لتشكيل وصياغة البناء الداخلى للفرد .

وفى عبارة حاسة صريحة يقول الرئيس السادات :

« احنا معندناش فكرة عن بناء الإنسان .. وبالتالى حياتنا ارتجالية .. كل شىء فى حياتنا ارتجالى .. ما بنديش العقل حقه عشان يدى قرار سليم ويواجه باتزان وروية وحكمة .. » .

ثم يقـول :

« الذى يفتح الآفاق أمامنا هو غذاء العقل باستمرار فى التعليم أو فى القراءة المستمرة .. العقل عايز غذاء يا أولادى .. لا بد من الغذاء .. هو الاطلاع والقراءة والتعليم .. كله ... كله . كل هذا بيدى غذاء ورياضة للعقل علشان يظل فى أحسن حالاته .. » .

والمعنى المستفاد من مقولات الرئيس السادات هى ضرورة العمل على تنمية وتطوير العقل الإنسانى ليكون على مستوى المسئولية الوطنية وذلك لا يتأتى إلا من خلال الاهتمام بالثقافة والتعليم بوصفها غذاء عقلى .

الثقافة وأثرها فى بناء الإنسان :

من المؤكد أن العقل الإنسانى يحمل أفكار وقيم المجتمع الذى يعيشه بما تنقله له مصادر المعرفة المختلفة السائدة فى هذا المجتمع .

ولا خلاف أن المجتمع المصرى أحاطت به ظروف تارخية سابقة على فترات متكررة حاولت أن تعزل بينه وبين العالم المحيط به وكرست فى المجتمع مجموعة من

القيم الفكرية والثقافية السطحية أو المتناقضة التى لا تخدم فى المقام الأول تراث ومبادئ هذا البلد.

ولا خلاف أيضًا أن المجتمع المصرى يعيش الآن وفى عصره الحديث مرحلة تحول تاريخية هامة فى ظل السلام.. وهذه المرحلة تلقى على أجهزة الثقافة عبء تطوير وتعميق الثقافات الموجودة بما يتلاءم وطبيعة المرحلة التى نحياها وبالقدر اللازم لإعادة صياغة الإنسان المصرى الجديد - وأيضًا بما لا يمثل إخلالاً لمبدأ أو طمسًا لقيمة من تراث وتاريخ وقيم هذا البلد.

ولكن ما هو شكل الثقافة المستهدفة لبناء العقل والإنسان ؟

أولاً : أن تكون الثقافة على قدر من الالتزام :

والتزام الثقافة بهذا المعنى يعنى ارتباطها بالمجتمع وتعبيرها عنه - أى أن العمل الثقافى هو فى الأساس من المجتمع وللمجتمع.. ذلك أن الأعمال الفكرية التى يصوغها الأديب أو المفكر أو الفنان ما هى إلا حصيلة لجموع الخبرات الإنسانية والاجتماعية التى تراكمت لديه من خلال تعامله مع القطاعات الجماهيرية العريضة.. كما أن العمل الثقافى الذى يبدعه الكاتب ليس إلا قيمة فكرية أو اجتماعية أو سياسية يتقدم به إلى القراء. ومن هنا فإن العمل الثقافى لا يخرج عن كونه نشاطًا اجتماعيًا ينبع من صميم الحياة نفسها - وتنحصر غايته فى الواقع والإنسان ومن ثم يجب أن تكون الثقافة معاصرة للمجتمع فى تقدمه المستمر وأن تقف على مشكلات الحياة الاجتماعية التى تعانى منها الحياة الفردية وتعبر عنها وتتلمس الطريق إلى حولها.

والالتزام بهذا الفهم يخرج عن دائرة الإلزام وإنما يحيل العمل الثقافى مرآة ينعكس عليها الواقع وأسلوب ترقية.. أى أنه توظيف لطاقات الإبداع الفكرى دون أن يكون قيدًا على المفكر خاصة وأن العمل الثقافى لا يمكن تصوره كنشاط مهتم بذاته ومنعزلاً عن غيره من النشاطات الاجتماعية - ومن ثم فإن حرية المفكر

هى فى الحقيقة والواقع حريته فى التعبير عن عصره وتصوير مجتمعه والمشاركة الإيجابية فى دفع حركة التقدم الحضارى فيه .

ثانيًا : أن تكون الثقافة وطنية :

وتعبير النشاط الثقافى عن التراث الوطنى وتأكيده للقيم الوطنية الأصيلة هو المدخل الصحيح لبناء الإنسان الجديد ، فهو يعصمه من الدوران حول فلسفات أو أفكار غريبة أو مستوردة بعيدة الصلة عن واقعنا .

وتعبير الثقافة عن تراثنا الحضارى لا يتعارض مع تعبيرها عن القيم الإنسانية العالمية التى لا تختلف من عصر إلى عصر أو من مجتمع إلى مجتمع .. فالفكر الوطنى الصحيح هو الذى يجمع بين الأصالة والمعاصرة ، بين الوطنية والعالمية .. فلا ينغلق على ذاته ولا تطغى عليه قيم غريبة ، وإنما يزاوج بين أرقى ما فى الحياة وأعظم ما فى التراث ليبنى الوعى الإنسانى بناء منسجمًا بين التطور المعاصر والثوابت القيمية فى المجتمع ويوازن بين التقدم المادى والتقدم الروحى للإنسان .

ثالثًا : أن تكون الثقافة شعبية :

من المؤكد أن الفكر والثقافة ليس ترفًا عقليًا يعبر عن القلة أو يوجه إليهم .. إنما هو عمل شعبى عام يعبر عن الوسط الاجتماعى الذى يعيشه المفكر وطبيعة العصر الذى يحياه ويترجم مقدار الحضارة المحصلة ومدى تأثير التراث الثقافى والمشكلات الاجتماعية على خلقه وإبداعه الفكرى ، كما يصور قدرة المفكر على ريادة مجتمعه وإعادة تشكيل واقعه ..

ومن هنا فإن الثقافة يتحتم أن تجد مصدرها فى الحياة وأن تجد هدفها بين الجماهير الشعبية الواسعة لتفجر فيهم طاقات العمل الخلاقة وتحرك فى أعماق كل منهم محركات الانطلاق الدائم إلى غايات التقدم والتطور .

ومن هنا أيضًا يتحتم أن تكون الثقافة للجميع .. فى متناول الكل .. وتعبر عن هذا الكل .

وهكذا يمكن القول فى بساطة أن العمل الثقافى يعد محورًا رئيسيًا فى بناء الإنسان الجديد من خلال أبعاد رئيسية من أهمها :

١ ـ إسقاط القيم البالية وإحلال قيم جديدة محلها من خلال التعبير الموضوعى عن مشكلات المجتمع ونقدها بمسئولية والمشاركة الإيجابية فى إيجاد الحلول لها .

٢ ـ إشاعة مزيد من المعارف الإنسانية والمدارك الجماعية التى تبنى الوعى الوطنى وتنمى الإحساس بالمسئولية وتخلق منهجًا موضوعيًا فى التفكير عند النظر إلى القضايا الوطنية .

٣ ـ تحقيق الترابط الاجتماعى والوحدة الوطنية من خلال الترابط الثقافى والفكرى بين الأفراد ذلك الذى ينتزع الفرد من صميم ذاته ليوحد بينه وبين غيره من المواطنين من خلال مشاركة عقلية وفهم مشترك .

ولعله يصبح ضروريًا الانتقال من هذا الموضوع إلى أن نلمح إلى قضيتين رئيسيتين وثيقتى الصلة بالثقافة وهما :

قضية التعليم العام :

ولعله لم يعد يخفى على أحد أن التعليم العام لا ينبغى أن يكون كما من المعلومات التى يلقن بها الطلاب وتكدس فى رؤوسهم دون هضم أو استيعاب ليعبر عنها على أوراق الامتحانات ثم تنسى .. هذا من ناحية .. ومن ناحية ثانية فلا ينبغى كذلك أن تفتقر مناهج التعليم العام للمحتوى الثقافى العام الذى يزود الشباب بمجموعة المعارف الإنسانية العامة المرتبطة بالحياة والمتصلة بالواقع .. ومن ناحية أخرى لا يصح أن تنفصل الدراسات الجامعية عن الظروف والمشكلات الاجتماعية وكأن العلم للعلم وليس للمجتمع .

وانطلاقًا من هذه الرؤية للتعليم العام فإن مجتمعنا لا بد وأن يتخذ الخطوات إلى ثورة تعليمية تساهم فى البناء الداخلى للجيل الجديد وتبنى عقله وفكره وتخلق فيه ملكة التأمل والقدرة على الفهم والاستجابة . كما تساهم نظريًا وتطبيقًا فى حل المشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى يمر بها المجتمع فى مرحلة .

أى أن التعليم يجب أن يعكس اشعاعات حضارية جديدة تنير الطريق أمام مسيرة المجتمع من خلال فلسفة مستقرة وبعيدة المدى لمناهج وأساليب الدراسة وإعداد القائمين على العملية التعليمية على نسق يتلاءم مع هذه الفلسفة .

ولعل ما تزمع وزارة التربية والتعليم القيام به فى هذا المجال فى هذه الآونة وما قررته من مد التعليم الالزامى إلى المرحلة الإعدادية لبداية موفقة يتعين أن تتصل بغيرها من الخطوات لتطوير العملية التعليمية ككل ليصبح كما أراده الرئيس غذاء للعقل وأداة لإعادة صياغة الإنسان المصرى كى لا تكون حياتنا .. كما يقول ارتجالية وإنما تقوم على حكمة وروية واتزان .

قضيه الأمية :

ونعنى بها فى المقام الأول الأميه الهجائية بوصفها تحديا حضاريًا ينبغى مواجهته ... إذ ليس من المنطق المعقول أن ينطلق المجتمع فى عصر السلام والرخاء لبناء حضاره إنسانيه جديدة ونسبة كبيرة من افراده تعانى من الأميه الهجائية التى تقف عائقا أمام بنائه الثقافى والفكرى وقد تشكل عقبة أمام محاولات بنائه الداخلى بما يتلاءم وروح العصر.

وليس من المنطق والمعقول فى ظل نداءات الرئيس السادات بضرورة بناء الإنسان المصرى من جديد أن تقصر الإمكانيات أو التخطيط الشامل عن محاصرة هذه المشكلة والتصدى لها قوميا والقضاء عليها خاصة وأن الأمية الهجائية يستتبعها أميه ثقافية وتخلف فكرى .

ومن هنا فإن سرعة وجدية العمل فى هذا النطاق أصبحت ضرورة حيوية يتحتم البدء فيها فورا على مستوى الجهود الرسمية والجهود الذاتية معا .

ولكى تنجح هذه الجهود فإنه ينبغى إعاده النظر فى الفلسفة والتخطيط الذى يعالج بهما الموضوع باعتباره أحد جوانب الثورة الشاملة التى يعيشها المجتمع فى ظل السلام والرخاء والبناء .

ثالثا : الجسد

بناء الجسم الإنسانى هو أحد عناصر العملية الكلية للبناء الداخلى للمواطن ويقوم على النشاطات العضلية والبدنية وما يتصل بها من استجابات وتكيفات اجتماعية .

والنشاطات المتصلة ببناء الجسم الإنسانى تمثل جانبا هامّا من جوانب التربية العامة لما فيها من فرص متعددة للخبرات والعلاقات والقيم .

وبما أن الأهداف التربوية هى الغايات التى تسعى وسائل بناء الشخصية إلى الوصول إليها .. وأن أهداف بناء الجسم من خلال التربية الرياضية تقع فى نسيج أهداف التربية العامة .

ويقول الرئيس السادات عن بناء الجسم الإنسانى وضرورته :

« الجسم أظن مفيش حد فى العالم بيعامل جسمه ذى ما احنا بنعامل أجسامنا يا أولادى .. الإفراط فى الأكل .. عدم الرياضة .. الميل للكسل إنما هل احنا علمنا ناسنا أن سلامة الجسم هى عملية أساسية علشان رسالة الحياة اللى أرادها ربنا .. أساسية فعلا .. لأنه حينما يختل الجسم يختل العقل وياه .. وبيختل القرار وياه .. حاجات بديهية لك لا تعطيها حقا .. » .

« عايز أقول لكم حاجه .. فياضة الجسم .. أنت بتتجدد بالرياضة .. تتجدد على طول .. شوف نفسك بعد .. رياضه المشى ، أو بعد أى لعبة تلعبها رياضة وتعرق فيها شوف نفسك معنويّا .. إحساسك من داخلك .. تلاقيك متغير كاملا .. » .

ومن هذه العبارات للرئيس السادات التى يؤكد فيها على أهميه الرياضة والتربية الرياضية بوصفها ضرورة لبناء الجيل الجديد داخليا يمكن أن نشير إلى أهم ما تحققه التربية الرياضية كمفهوم شامل للتربية العامة .

١ ـ التربية الرياضية التى يمارسها الفرد فى حياته اليومية تنمى لديه المهارات البدنية النافعة فى حياته فتكسبه مظهرا لائقا ينعكس على مظاهر حياته العامة

وبالتالى على حياة المجتمع ككل لأنه سوف يؤدى عمله وواجبه بسهولة ويسر وبصورة أفضل .

٢ ـ التربية الرياضية تعمل على صيانه الجسم الإنسانى لكى يؤدى وظائفه المعتادة بنشاط وحيوية ومن ثم يتصف هذا الجسم بالكفايه البدنية التى من أهم مميزاتها القوة والجلد والتلبية السريعة والتوازن فى الحركة واستخدام الجسم بصورة توفر الطاقة وتزيد من المهارة .

٣ ـ التربية الرياضية تساعد الفرد على اكتساب صفة التفكير العقلى المنطقى والمنظم . ذلك أن الأنشطة المتعددة التى يمارسها الأفراد تكسبهم معلومات وخبرات ومعارف جديدة لأن هذه النشاطات لا تستثير الجسم فحسب ، إنما تستثير مجموعات أخرى من القيم تصاحب هذه الأنشطة .

٤ ـ التربية الرياضية تساهم فى تحقيق التوازن النفسى والاجتماعى للفرد من خلال إكسابه الثقة فى نفسه وقدرته على ضبط انفعالاته والتعبير عن نفسه فى موضوعية ودون مغالاة ومن خلال التعاون واحترام العمل الجماعى واحترام التعليمات والضوابط المقررة .

٥ ـ التربية الرياضية هى الوسيلة المثلى للتدريب على القيادة وفن الإدارة وتحمل المسئولية كما أنها المجال الصحيح للتدريب على الحياة الاجتماعية المنظمة والمنضبطة التى يعرف كل من فيها دوره وواجبه ويستشعر فيها كل منهم كيف أن تقصير كل عضو فى أدائه لدوره ينعكس على المجموع كله .

٦ ـ التربية الرياضية أحد الوسائل الفعالة لممارسة العادات الصحية والاتجاهات السليمة ذلك أنها تزود الفرد بالمعلومات التى تؤدى إلى بناء وصيانة جسمه وحمايته من التوترات والأرق وغيرها ، بالإضافة إلى ما تحققه من إعداد للفرد نحو حب الجماعة ، وإنكار الذات والتنافس الشريف الذى يرشد الحماس ويضبط الانفعال ويصونه من الأنانية .

ولعلنا عند هذا الحد نستطيع أن نقول حقا « إن العقل السليم فى الجسم السليم » وما دام الجسم سليما والعقل سليما فان التوازن النفسى يصبح نتيجه منطقية لها .

فإذا أضيفت لها وضوح الرؤية بمعطيات الفكر والثقافة - يكتمل البناء الصحيح للإنسان الجديد .

وإذا وجد الإنسان المصرى الجديد .. فإن عالما جديدا سوف يظل على أرضنا .. عالما يتسم فيه المواطنون بالأمن والأمان وبالسلام والبناء والرخاء .

الباب الثانى

العلاقات الأساسية للإنسان

يكاد يجمع الفكر الإنسانى والاجتماعى بل والتاريخى كذلك على حقيقة ثابتة تجاه الإنسان وعلاقته بالمجتمع تأثرا وتأثيرا . فصارت مقولة « إن الإنسان مخلوق اجتماعى » على كل لسان ومناط كل فكر إنسانى .

ومن هذه العبارة الموجزة قد يستخلص أن حياة الإنسان لها أبعاد ثلاثة :

البعد الأول :

ويتمثل فى كونه الإنسان مخلوق له خالق أوجده لتحقيق هدف فى هذا الوجود من خلال منهج قد رسمه له خالقه يتعين الالتزام به .

وهذا يعنى بالضرورة أن الله لم يخلق الإنسان فى هذا العالم ثم تركه وشأنه بعد ذلك .. وإنما يعنى أن هناك علاقة بينهما تظل قائمة ما بقيت الحياة وما بعد الحياة .

البعد الثانى :

ويتمثل فى كون الإنسان اجتماعى بالفطرة والطباع . أى أنه لا يعيش فى جزيرة معزولة عن باقى البشر . وإنما تتعدد علاقاته وتتشابك معاملاته مع غيره من بنى جنسه .

وهذه العلاقات والتعامل تبدأ من حيث يقف الإنسان مع نفسه وتنتهى حيث موقف الإنسان من كل أجناس البشر .

والبعد الثالث :

يتمثل فى كون الإنسان جزءا من مخلوقات الله فى هذا الكون الواسع الذى يعيش فيه ويعيش به .

ومؤدى هذا أنه لا يستطيع أن يعيش حياته ويحقق رسالته مالم يتعامل مع باقى مفردات هذا الكون سواء كانت جمادا أو نباتا أو كائنات حية .

ومعنى هذا أن هناك علاقة بين الإنسان وربه .. وبين الإنسان والإنسان .. ثم بين الإنسان والكون الذى يعيش فيه .

وكلما أدرك الإنسان طبيعة هذه العلاقات والأسس الصحيحة التى يجب أن

تقوم عليها ثم كيف يحقق التوازن بينهما - كلما كانت حياته ناجحة ومحققة للهدف منها .

وفيما يلى سوف نحدد أسس هذه العلاقات كما يراها السيد الرئيس وكما يرجو لها أن تترسخ فى وجدان الشباب .

الفصل الأول

العلاقة بين الله والإنسـان

يقول أحد الفلاسفة « قد نجد فى الماضى أو فى الحاضر مجتمعات بشرية لا تعرف العلم أو الفن أو الفلسفة ولكن ليس ثمة مجتمع بلا دين »

ويقول فليسوف آخر « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها .. ولكن يستحيل أن يمحى التدين »

والدين هو العلاقة بين الله والإنسان . والإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى كرمه الله فى علاقته به وفى تعامله معه . الأمر الذى يلقى على الإنسان عبء النهوض بما أراده الله له من هذا التكريم .

وفى ذلك يقول الرئيس السادات :

« **إن صيام الإنسان أن تكون علاقته بخالقه سبحانه وتعالى متمشية مع إرادة الله فى خلقه وفى تكوينه وفى تكريمه** » .

ولنفهم هذا المعنى المكثف تعالوا ننظر كيف كرم الله الإنسان ؟

أولا : خلقه فى أحسن تقويم .. ولقد أجمعت الكتب السماوية كلها على هذا المعنى ففى التوراه ورد فى سفر التكوين :

« **وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا** » .

وفى انجيل متى (الإصحاح الخامس) يقول السيد المسيح عن البشر إنهم أبناء الله :

« **طوبى لصانعى السلام .. إنهم أبناء الله يدعون** » .

وليس المعنى فى خلق الله الإنسان على صورته أو وصفهم بأنهم أبناء لله أن ذلك مطابق للحقيقة تماما وإنما المراد من ذلك هو إبراز تكريم الله للإنسان حيث

نفخ فيه من روحه وأودع فيه قبس من العلم والمعرفة والإرادة .

وتتضح هذه الحقيقة جلية فى قول الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم فى سورة الإسراء :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً » .

ويقول الله عز وجل فى سورة الانفطار مخاطبا الإنسان :

« الذى خلقك فسوّاك فعدلك * فى أى صورة ما شاء ركبك » .

وهكذا يحتل الانسان مكانة رفيعه عند الله حسمها القرآن بأنها ليست علاقة مشابهة أو بنوة حقيقية كما ورد فى التوراة أو الإنجيل وإنما هى صفات مجازية لمكانة الإنسان بين المخلوقات إذ لله المثل الأعلى .

ثانيا : أمر الله الملائكة أن تسجد للإنسان فى شخص آدم عليه السلام والسجود لا يكون لغير الله وفى ذلك إشارة صريحة لمكانة الإنسان وعلو قدره عند الله وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس .. » .

وفى هذه الآية الكريمة دلالات ثلاث وهى أن السجود لآدم كان بأمر الله وإرادته ليعطيه علوّا وشرفا يسمو على باقى مخلوقاته . ثم إن الملائكة قد سجدت فعلا لآدم امتثالا لأمر الله وتكريما لخليفته فى أرضه . والدلالة الأخيرة أن رفض إبليس السجود كان جزاءه أن طرد من رحمة الله إلى يوم يبعثون .

فأى تكريم أجل وأعظم من هذا التكريم .

ثالثا : أن الله قد سخر كل ما فى الكون لخلقه من البشر وتحدثنا الكتب السماوية عن هذا المعنى فتقول التوراة فى الإصحاح الأول :

« قال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التى تدب فى الأرض » .

ويقول الله تعالى فى سورة النحل :

« وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره - وسخر لكم الأنهار - وسخر لكم الشمس والقمر دائبين - وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

وهكذا يبين أن الانسان فى مكان التكريم عند الله وموضع الفضل والإحسان عنده .. وهذا لا شك مقام كريم رفعه الله إليه وأحله فيه ليكون على مستوى الرسالة التى خلق لها وهى خلافة الله فى أرضه .

ولينهض الإنسان بهذه الرسالة التى خلق لها - كانت علاقته بخالقه بغير واسطة - ومعاملته معه حرة بغير طقوس أو قيود - فعندما يدعو الله يجد يده مبسوطة بالخير والاستجابة ويقول الله فى محكم آياته :

« وقال ربكم ادعونى أستجب لكم »

ويقول فى حديث قدسى :

« من تقرب إلىّ شبرا تقربت إليه ذراعا - ومن تقرب منى ذراعا تقربت إليه باعا - ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

وهذه المكانة التى يحتلها الإنسان بين الكائنات والمخلوقات ترتفع به إلى مستوى المسئولية عن أقواله وأفعاله حيث يؤدى حسابا عنها إلى خالقه ومن استخلفه فى كونه - والذى قال فى حقه فى القرآن الكريم :

« قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك - قال إنى أعلم مالا تعلمون » .

ولعل النتيجة المستفادة من العرض السابق هى ما حددها الرئيس السادات مباشرة فى قولة :

« مطلوب من كل واحد .. وقد كرمه الله سبحانه وتعالى فجعل منه خليفته .. وفيه من روحه .. وسخر له ما على الأرض جميعا .. وكونه بالروح والعقل والجسد .. أظن أول مسئولية تكون على بنى آدم أمام هذا الذى صنعه الله أن تكون علاقته بهذا الذى صنعه وكرمه أن تكون علاقة محددة وعلى أحسن ما يكون .. أى

على الإنسان على الأقل أن يكون شكورا لهذا الخالق الذى استخلفه وكرمه فى خلقته على هذه الصورة » .

ويقول :

« إن الله سبحانه وتعالى قد بسط لنا الأمور للغاية عندما نأتى لنحدد علاقاتنا معه .. هو الذى كرمنا هذا التكريم وخلقنا هذه الخلقة .. وأعطانا هذه الخلافة والصورة التى خلقنا بها والحواس التى نستمع بها .. ومع ذلك تأخذها تلقائيا هذه نعم لا بد أن نشكره عليها كل يوم .. بل إنه قال لنا أكثر من ذلك إنه يقول لمحمد عليه الصلاة والسلام :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » .

مفيش واسطة .. قريب .. وفى موقع ثان يقول الله :

« وهو معكم اينما كنتم »

ثم يستطرد الرئيس القائد ليحدد المحور الذى ينبغى أن تقوم عليه العلاقة بين الإنسان والله فيقول :

« سنجد أن تحديد علاقتنا بالله سهل جدًا جدًا وأن قمة ما تستطيع أن تصل إليه هو أن تجعل من الله سبحانه وتعالى صديقا ومرجعا تركن إليه .. وفى اليوم الذى تصل فيه إلى ذلك عندها تكتمل قوة داخلية لا قبل لأحد بمواجهتها أبدا » .

ونعود لنسأل بعد مقولات الرئيس السابقة . كيف يجعل الإنسان من الله صديقا له ؟ وكيف تقوم هذه العلاقة الحميمة بين الخالق والمخلوق ؟

قلنا فى البداية إن الدين هو العلاقة الوثيقة بين الله والإنسان . وفى لمحة سريعة دعونا نعرف ما هو الدين وكيف ينشئ هذه الرابطة الروحية بين الأرض والسماء .

وقد يكفى أن نقول إن الدين هو الصلة الروحية بين الإنسان والإلـٰه ولكن فى بعض أقوال الفلاسفة ما يلقى اضواء حول هذا المعنى رغم عجزهم عن وضع تعريف جامع مانع محدد لهذا المعنى :

فمنهم من قال : « إن الدين هو معرفة الله والتشبه به »

وآخر يقول : « إن الدين عاطفة يكونها الانفعال الهادئ مقرونا بالخوف وحساسية الخضوع للعظمة » .

وثالث يؤكد . « أن الدين هو إجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة العمل على تحقيقه فى الحياة » .

ثم يبرز بعد ذلك من آخر : « إن الدين هو الشيء الذى يعتقد الإنسان فى صحته اعتقادا عمليا ويحسه الإنسان بقلبه ويأخذه على أنه حقيقة واقعة فيما يختص بعلاقاته المتعددة بهذا الكون العميق فى الغموض والاستغلاق وفيما يتعلق بواجباته فى هذه الدنيا ونهاية هذه الحياة » .

وتتوالى الآراء فيقول احدهم : « الدين هو الاعتقاد بعالم غير منظور (عالم الغيب وما وراء الطبيعة) وأن خيرنا الأسمى يقوم على إيجاد العلاقة الناجحة بيننا وبين هذا العالم » .

وهكذا يمكن القول بأن الدين علاقة إرادية بين الإنسان وبين قوة مطلقة لا نهائية هى الخالق يشعر فيها الإنسان أنه يعتمد عليها . وأن مصيره مرتبط بها وأنه ملتزم بمنهجها والاستجابة لأوامرها ونواهيها .. وأن هذه العلاقة تتحقق وتتواصل عن طريق الصلاة التى هى مزيج بين الطاعة والحمد والدعاء .

وبهذه المعانى يعتبر الدين مطلبا إنسانيا فطريا يغذى جانب الروح . ويستجيب لحاجة العقل والوجدان ويشبع رغبة الإنسان فى أن يقيم حياته على مثل عليا وقيم رفيعة . ولا شىء غير الدين يزكى النفس ويطهرها ويقيم فيها الوازع القوى اليقظ الذى يحصنها على الخير ويباعد بينها وبين الشر وصدق رب العزة حين يقول :

« إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .. »

وصدق رسول الله حين قال : « إن صلاته ستنهاه » .

وفى جملة واحدة أن الإمساك بمنهج الله ممثلا فى دينه يصفى النفس من أدرانها ويطهرها من شرورها ويملأها بالأمن والسكينة ويحصنها إلى طريق الخير والمثل العليا فتتجاوب شفافيتها وروحانيتها مع السماء وتنمحى الحواجز بينها فتنشأ العلاقة الحميمة الوثيقة بين الله والإنسان . ومن خلال هذه العلاقة يفيض خير الله على

خلقه ويسبغ عليهم رضوانه ورحمته ويمدهم بالقوة والمنعة التى تعينهم على آلام الحياة وعثراتها وشدائدها وتنمى فيهم روح المقاومة والعزيمة والصبر.

ومن تجربة الرئيس السادات فى هذا المعنى عندما أودع السجن إبان نضاله من أجل مصر يقول :

« دخلت السجن وعندى عقدتين نفسيتين كان لا بد أن أحلها وإلا لا يعلم الله أين كانت سترسوبى الأقدار .. جاءتنى مجلة دورية أجنبية تترجم بالعربية وفيها مقال لدكتور طبيب نفسى فى أمريكا بيحكى تجربته فى اثنين وعشرين عاما فى مجال العلاج النفسى فى أمريكا .. وقعت فى يدى هذه المجلة وسمعت الرجل يقول بعد اثنتين وعشرين سنة قضاها يعالج الإنسان من الأمراض النفسية .. أن وجود الدواء الناجح والوقاية الرائعة والتحصن المذهل ضد أى مرض نفسى هو كلمة واحدة هى « الإيمان » .. وجلست أفسرها .. « الإيمان » وكأنى كنت أقرؤها لغزا .. الإيمان .. الله ده صحيح لأن الإيمان بيخللى الواحد بيقول إيه ؟ لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

الإيمان بيخللى الإنسان راضى النفس من داخله .. من الداخل ما أنا بقول علاقتك مع الخالق » .

وخلاصة ذلك كله ان علاقة الإنسان بخالقه هى بذاتها علاقة الإنسان بدينه وبمعطياته الروحية والقيمية .

وكلما توثقت علاقة الإنسان بدينه توثقت علاقته بالله .

وكلما توثقت علاقته بالله فحسبه الله ونعم الوكيل .

الفصل الثانى

علاقة الإنسان بالإنسان

من المؤكد أنه لا يوجد إنسان يستطيع أن يعيش بمعزل عن غيره من البشر.. أى لا يمكن لفرد أن يمزق علاقاته ويقطعها مع كل من يعيش حوله ليبقى وحيدا قائما بذاته لا يتعامل مع أحد ولا يتعامل معه أحد.

وإنما الحقيقة الواقعة أن الإنسان اجتماعى بطبعه .. بفطرته .. وأنه فى هذا المجال له علاقتان متوازيتان :

أولاهما :

مع نفسه .. أى الإنسان يعيش مع نفسه طوال حياته لا ينفصل عنها ولا تنفصل عنه ومن هنا تنشأ علاقة بينهما وحوار مستمر لا ينقطع ولا ينفصم.

وقد تكون هذه العلاقة صحية ومتسقة عندما يرضى الإنسان عن نفسه ويحقق ذاته ويتوافق مع قيمه وأخلاقياته. وقد تكون هذه العلاقة مرضية ومتناقضة عندما لا يرضى الإنسان عن ذاته أو عندما تتنافر أفكاره مع أعماله أو قيمه أو سلوكياته.

ثانيهما :

مع مجتمعه .. أى مع باقى أفراد الجماعة الإنسانية التى يعيش داخلها فهو عضو فيها وجزء منها يحمل تراثها وقيمها ويتعامل بسلوكياتها ومطالب بأن يتكيف مع حركتها.

وكلما حقق الفرد تكيفا اجتماعيًا مع باقى أفراد المجتمع كلما اتسمت حياته بالنجاح الاجتماعى .. وكلما تمرد على واقعه بغير فهم أو تبصر كلما انعزل عن مجتمعه ولفظه واقعه وأصبح نغمة فردية شاذة داخل الوسط الذى يعيش فيه.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن علاقة الإنسان بالإنسان تبدأ بعلاقته بنفسه

وتنتهى بعلاقته بالمجموع وكلما توازنت علاقه الإنسان مع نفسه توافقت علاقاته بالمجتمع .

علاقة الإنسان مع نفسه :

قلنا فيما سبق إن المقومات الأساسية للإنسان هى الروح والعقل والجسد .

وقلنا إنه لا بد من تنمية الروح بالإيمان والقيم الدينية - وتنمية العقل بالفكر والثقافة والمعرفة - وتنمية الجسد بالتربية البدنية والرياضية .

وعندما تتوازن هذه المقومات الأساسية يكتمل البناء الداخلى للإنسان الفرد ولكن يبقى سلوكه الخارجى .

وعندما يتوافق سلوكه الخارجى الملموس مع بنائه الداخلى والقيمى غير المنظور فيتحقق التكامل والتوازن للإنسان الفرد .

ومن هنا تعتبر علاقه الإنسان بنفسه أرقى مظهر من مظاهر التوازن الشخصى .

فعندما يطبق الفرد معطياته الفكرية والثقافية والقيمية على نفسه أولا قبل أن يطالب بها الآخرون .

وعندما يقوم الإنسان على ما يؤمن به أنه الحق والصواب ويرفض أن ينجرف فى تيار ما لا يؤمن أو يقتنع به .

وعندما يقف الإنسان مع نفسه يحاسبها ويقومها فى صراحة وصدق .

وعندما لا يبرر لنفسه أعمالا أو سلوكا لا يغتفره للآخرين .

عندئذ تكون العلاقة بين الإنسان وذاته علاقه حب وصدق تفيض بعطائها على من حولها من أفراد المجتمع .

وعندئذ تتولد فى أعماق الإنسان الفرد طاقات قدرة وصلابة لتحدى الباطل وتقاوم القهر وتتغلب على كل الصعاب .

وتعالوا تستعرض معا تجربة الرئيس القائد وقت المحنة وكيف استطاع أن يتغلب عليها بتعامله القويم والصحيح مع نفسه .

يقول الرئيس :

« مطلوب أيضا من الإنسان أن يجدد علاقته مع نفسه .. وأحكى لكم تجربتى

فى هذا .. جاء اليوم الذى سجنت فيه فى زنزانة أبعادها مترين فى متر ونصف وجردل أشرب منه للشرب .. وآخر لقضاء الحاجة .. ومغلقة الزنزانة لمدة سنة ونصف يا أولادى .. بلا كتاب .. ولا صحيفة ولا راديو ولا شيء إطلاقا .. »

كيف استطعت أن أنجو من هذه التجربة ؟

هذه التجربة رهيبة على الإنسان خصوصا لمن هو مثلى أنا وليس كأولادى التلاميذ .. من هو مثلى أنا .. لقد كنت أكافح بمجرد ما أن تخرجت من الجيش .. دخلت السياسة وكنت اكافح ضد من ؟ ضد الإنجليز الذين كانوا يمسكون البلد .. وضد الأحزاب التى تشكل الوزارات .. وضد الملك الذى يحكم البلد .. وعلى لكى أبقى كضابط .. أن أخفى ذلك وأعمله فى السر ولكن لا بد أن أسير وأكمل .. وكل ذلك كنت أعمله وأنا أعيش حياتى بالطول والعرض .. وفى الكفاح السياسى .. كفاح سياسى يعنى أن أجلس وأسمع أخبار الدنيا كلها .. ولكى اتتبع أقرأ الجرائد كلها وأستنتج لنفسى وأعمل خلايا من أجل التنظيم بتاعى اللى ماشى .. وهكذا ..

يعنى ما كنتش عاطل بره .. فلما تيجى تاخد إنسان هذا وضعه وتحطه فى زنزانة ويقفل عليه .. يبقى أقسى عليه من التلميذ الصغير ـ الذى فى نفس وضعه ـ لأنه ماشفش وأنا شفت وعايش باسمع الدنيا كلها وأخبارها إيه .. وباشكل عملية كفاح بالنسبة لمصر .. وباتصل بالناس ويتقابل .. واجتماعات .. كانت صعبة قوى .

كيف نجوت يا أولادى ؟ ؟

نجوت بالعملية التى أقول لكم عنها هنا .. التى أريد أن أعلمها لكم .. نجوت لأنى تعلمت كيف أعيش مع نفسى .. وداخل نفسى .. ولم يكن هناك سبيل اذا أردت أن أهرب من نفسى .. كان لا بد أن أقوم فأدق رأسى فى الحائط فينكسر .. وهذا لأن المعاناة صعبة جدا .. تعلمت أن أعيش داخل نفسى .. لأن الذى لم يتحملوا تعبوا عقليًا .. أو ماتوا فى سن صغيرة كلهم ..

من هنا أقول فى رحلة الحياة عليك أن تتحد أولا علاقتك بالخالق الذى استخلفك وكرمك .. ومحصلة هذا ستكون قوة داخلية تكتسبها فى نفسك .. ثم أن

تعيش مع نفسك بحيث إذا ما اشتدت المعاناة على الإنسان فى حياته تستطيع أن تعود إلى نفسك وتخلق لنفسك كل ما تستطيع أن تسعد به رغم المعاناة » .

ورغم ما قد مناه لهذه الفقرة تعالوا نقف امام بعض مدلولاتها التى يجب ألا تغيب عنا :

١ ـ أن من يتصدى للكفاح السياسى بمعناه الوطنى الذى يضع مصر قبل كل شيء وفوق كل شيء يتعين عليه أن يتمتع بالصلابة والعزم وألا تنكسر أو تتحطم مقاومته أمام القهر والإرهاب - إنما يستمد من إيمانه بوطنه والتزامه بقيمه ومبادئه زادا يعينه على الصبر والصمود ومواصلة الكفاح .

٢ـ إن الكفاح السياسى ليس وهينة ينعزل بها الإنسان عن الحياة وينغلق بها على طريق واحد يسير فيه فى حياته .. وإنما الكفاح السياسى لا يمنع أن يعيش الإنسان حياته طولا وعرضا كباقى أفراد المجتمع .. وفى ذلك حكمة ذات عمق وهى ألا ينفصل القائد السياسى عن حركة المجتمع وتفاعلاته وما يذخر به من الآم وآمال .

٣ـ أن يحرص الإنسان على أن يستمد القوة من داخله .. من ذاته .. ولا ينتظرها من مصادر خارج نفسه .. وإنما يعايش مبادئه ويتعامل معها وينظر دائما إلى أعماق ذاته يستخرج أعظم ما فيها من حوافز الوطنية ودوافع الصمود والمقاومه وألا يجعل من تعدد العقبات أو تنوع المعاناة دافعا إلى اليأس أو التقوقع وإنما يحيلها إلى طاقات وطنية جديدة تحفزة إلى مزيد من الكفاح من أجل تحقيق آماله وآمال وطنه .

٤ـ إن معاناة الكفاح السياسى وقساوتها لا تخلو من سعادة ـ بل قد تكون هى فى ذاتها سعادة . لأنها دليل على أداء الواجب والالتزام بالمبدأ - ثم هى دليل على اقتراب يوم النصر وتحقيق الطموحات الجماهيريه التى لا تتحقق إلا بضريبتها من المعاناه والكفاح الصعب .

ثم يستطرد الرئيس القائد فى شرح تجربته مع نفسه داخل الزنزانه وكيف تعامل مع نفسه وقتها فيقول :

« إننى تعلمت كيف أعيش داخل نفسى وأتخذ وقاية لعقلى وتكوينى ونفسى كلها من الجو الرهيب الذى كنت أعيشه .. فلا أحد يكلمنى .. ومسجون ... ولا أعرف مصيرى .. وفيه إيه كمان جاى هل سيحكم على بالإعدام أو المؤبد أو براءة .. التوهان ده لوحده . كل بند منه كاف لهدمى .. فكيف حصنت نفسى ؟ .

عشت .. تعلمت أن أعيش داخل نفسى .. عندما صرحوا لنا بعد سنة ونصف من المعاناه بالجرائد والكتب جاءتنى حالة تلق غريبه كل شىء أقرأه أجد فيه شيئًا جديدا .. وبعد ذلك نسيت لأننى تعودت .. يعنى .. عرفت كيف أدخل داخل نفسى لكى أواجه التيار الرهيب الذى كان يجرفنى عقليًا وجسمانيًا ..

وبالكيفية التى تعلمت بها أن أعيش داخل نفسى .. كانت تلك هى حزام النجاة والوقاية لى ..

فلا الزمان ولا المكان أصبح له أساس.. فما يتعب فى الزنزانة هو الزمان والمكان.

يعنى تصور نفسك كده وأنت قاعد .. بين أربعة جدران .. وبعدين قد تصل بالبعض أنه يقعد كل شويه يقول الساعة كام ؟ ما هذا ؟ هل تريد أن تعد سنتين ونصف ؟ واحد وثلاثون شهر .. ولو بقيت كل يوم أقول الساعة كام .. طيب .. هل جاء العصر.. المغرب .. هذا شىء رهيب .. لا .. مبعث السعاده فى السنة الشهور الأخيرة كان يأولادى أننى ارتفعت فوق الزمان والمكان .. اى لم تعد زنزانه وأربعة جدران .... لا أحد يكلمنى وسجن .. لا .. فقد كنت أعيش فيما أقرؤه بالإضافه إلى أنى تعلمت كيف أعيش داخل نفسى .. وأنى أهيئ لنفسى ما أدافع به ضد أى تيارات من المخربة التى تأتى لى من الخارج » .

وهكذا يحدد الرئيس مدى طاقات القدرة الكامنة داخل النفس الإنسانيه عندما يكتمل بناؤها الداخلى وعندما تؤمن عن قناعة بمبدأ تعمل من أجله وعندما تكون صادقة مع نفسها فيما تفكر فيه وفيما تعمله .. عندئذ تنمو فى داخلها قدرات بغير حدود يكون بوسعها ان تتجاوز قوة المعاناه ... ومرارة القهر .. ووحدة السجن .... ويصبح بمقدورها أن تتخطى الزمان والمكان وأن تعلو عليها وتعيش فى عالم خاص بها ارتضته لنفسها وصنعته بإيمانها والتزامها .. كما يكون فى إمكانها أن

تتصدى لكل عوامل الهدم أو الانهيار من التيارات المتسربة إليها نتيجة لما تعانيه .

وهكذا فإن البناء الداخلي للإنسان .. وقوة عقله وروحه .. وصدق تعامله مع نفسه .. يعد ضرورة حيوية لبناء إنساننا المصرى الجديد .

علاقة الإنسان مع المجتمع :

يقينا فإن علاقه الإنسان بالمجتمع تنبع من علاقته بنفسه بمعنى أنه كلما كانت علاقته مع نفسه متسقة ومتوازنة كلما انعكس ذلك على علاقته مع غيره من أفراد المجتمع .

وليس من المنطق والمعقول أن يتناقض الإنسان مع نفسه وتتنافر مكوناته وتتعارض فكرياته مع سلوكياته الشخصية ثم تجئ علاقاته فى الوسط الاجتماعى صحيحة ومتوازنة .

وعندما يتم التوافق بين الفرد والمجتمع .. وهو ما يطلق عليه التكيف الاجتماعى .... يصبح الفرد مقبولا من الجماعة ويصبح بمكنته أن يؤدى دوره ويحقق هدفه بل ويصبح فى مقدوره أن يساهم فى حركه التغيير الاجتماعى وإلى ما هو أفضل نتيجة لوعيه بمجتمعه وقدراته ومكوناته وكونه مقبولا ومتفاعلا مع هذا المجتمع .

ويقول الرئيس القائد فى هذا المعنى :

« أنت محتاج أيضا لعلاقتك مع الناس الذين من حولك .. فى الكليه زملائك .. فى البيت جيرانك وأهلك وأصحابك .. فى كل مكان .. فى المصنع .. فى الحقل .. فى أى مكان .. علاقتك بالناس .. وهذه أيضا من واقع الخلافة .. والقيم التى وضعها لك خالقك .. وقال لك : خليك سمح .. وبلاش الحقد .. وخللى الحب هو اللى يسود فى علاقتك مع الناس .. وخلى البشر فى وجهك دائما .. لأن البشر شىء مقبول من كل الناس والغنامة مرفوضة من كل الناس ..

وهذا ما أنا معنى به معكم .. بل هو نهاية كل ما أحكيه لكم أنه بيكون داخل كل منا جهاز يعكس على البقعه التى توجد أنت فيها .. زملائك .. عملك .. أى شىء تواجهه .. وهذا حقيقى ..

المغناطيسية التى تطلع منك .. هل هى مغناطيسية سالبة الذى أمامك يشمئز منك .. أو موجبة تجعله يقبل عليك .. هذه ببساطة أسس البناء الذى أريده لكم يا أولادى عايزها موجبة .. مغناطيسية موجبة .. تجذب إليك كل من يراك يستمع إليك ويسعد بك .. وأنت نتيجة لهذا ستسعد داخل نفسك » .

وعلى الرغم من وضوح المعنى الذى ساقه السيد الرئيس بما لا يحتاج إلى تعليق غير أنه يجدر بنا أن نتوقف قليلا أمام عدة من مدلولات احتوتها هذه العبارة !

١ ـ كل فرد يحتاج إلى غيره فى تسيير حياته ولا يستطيع إنسان أن يحقق لنفسه بمعزل عن البشر اكتفاء ذاتيا يغنيه عنهم .. كما أنه ليس هناك إنسان يعطى دائما وآخر يأخذ دائما .. وإنما الحياة عطاء متبادل وتعاون مشترك .. وبقدر ما تعطى يتيسر لك أن تأخذ . ومن هنا تجىء مفاهيم العمل المنتج والتكافل الاجتماعى .. وغيرها من القيم الاجتماعية العليا التى يتعين إعمالها والإمساك بها لتقوم حركة المجتمع على أسس صحيحة وسليمة وتكون العلاقات الاجتماعية السائدة مستندة إلى مبادئ ثابتة تتساقط فيها الانتهازية والنفعية وتعلو فيها قيم الجماعة المترابطة التى يعمل فيها الجميع من أجل الجميع .

٢ ـ إن العلاقات الاجتماعية ينبغى أن تقوم على الحب والسماحة باعتبارها أولا : دليل إنسانيه الإنسان وثانيا : دليل على تكيفه الاجتماعى وأخيرا دليل على التمسك بالقيم الروحية حيث يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم :

« ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك » .

ذلك أن البشر والسماحة مفتاح لكل القلوب الموصدة ومدخل العقول المغلقة .. والحب طاقة روحية هائلة تستقطب كل قيم الحق والخير والجمال . وبالسماحة والحب يتخلق الإنسان الاجتماعى المعطاء وتنمو الوحدة الوطنية الوثيقة وتتصاعد حركة البناء الاجتماعى نحو أهداف المستقبل .

٣ ـ بالعمل المشترك القائم على السماحة والحب يقبل الناس وتتوافد جموعهم إيمانا بصحة المبدأ وسلامة الوسيلة .. ومن ثم يمكن عندها تعبئة هذه الصفوف

وتنظيمها نحو الأهداف الوطنية المشتركة وتحصينها ضد أى تيارات غريبة أو مخربة تريد أن تنال منها أو من وحدتها فتنطلق المسيرة الاجتماعية على أرض صلبة تعرف أهدافها ووسيلتها إليها .

٤ ـ العلاقات الاجتماعيه القائمة على الحب والسماحة تقتلع الحقد من نفوس الآخرين بوصفها نموذجا إيجابيًا للتعامل وإشعاعات مضيئة تنير مسالك الضالين فى دروب التنافر والصراع فتتلاشى كل القيم البالية على ساحات أفراد المجتمع وتترسخ فى وجداننا كل معانى المثل العليا التى تبنى ولا تخرب .

وتعالوا بعد ذلك لنطالع معا تأكيد الرئيس القائد لهذا المعنى الاجتماعى الرائع فى علاقة الإنسان بغيره من الناس حيث يقول :

« مع الناس ... علام نتصارع ... ؟ وكله زائل .. وما نراه من صراع فى الحياه اليوم محوره الماديات .. ما يبيق مليونير ثم فى النهايه كما يقولون « الكفن مالوش جيوب » ويفنى كل شىء على الإطلاق .. بل ويتساوى هو مع أى إنسان آخر مات فى نفس اليوم وهو معدم .. يتساوى الاثنان .. وانتهى الأمر .

بل لعل هذا المعدم عند الله أفضل لأن سلوكه كان أحسن .. ثم لماذا الصراع ؟ ولماذا لا نخطط حياتنا على العزة والقوة والتكريم الذى أعطاه لنا الله سبحانه وتعالى فى خلقتنا وفى وظيفتنا على هذه الأرض ؟ لماذا ننحدر وننزل بها عن هذا المستوى ونفتح صراعا مع الناس ؟ .

نعم . لا يقوم الصراع إلا من أجل مادة .. فلا يكون الصراع من أجل قيمة معنوية فهى متاحة للجميع ينهل منها حيث شاء وكيف شاء .

والصراع من أجل المادة .. صراع من أجل فان زائل .. يخسر المرء به حياته وآخرته فى آن واحد « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » .

نعم يجب أن نخطط حياتنا الاجتماعية على القوة والعزة والكرامة التى أرادها الله للإنسان حين خلقه فى أحسن تقويم وجعله خليفة فى أرضه يعمرها بالحب والحق والسماحة والعدل وليكون على مستوى المسئولية الوطنية التى تتطلب وحدة الفكر ووحده العمل ووحدة المصير .

الفصل الثالث

علاقه الإنسـان بالكـون

الإنسان جزء من كون الله الواسع الفسيح ... سخره الله له ليؤدى رسالته التى خلق من أجلها .

والعلاقات القائمة بين الإنسان والكون تتعدد بتعدد مخلوقات الله فيه .

فعلاقة الإنسان بالأرض تتمثل فى الجاذبية التى تحفظ توازنه عليها ولو اختلت هذه العلاقه بتغير الجاذبية لانفرط عقد الحياه الإنسانيه .

وعلاقة الإنسان بالنبات تتمثل فى كونه مصدرا رئيسيًا للغذاء من ناحية ووسيلة لامتصاص غاز ثانى أكسيد الكربون من الجو من ناحيه ثانية أى أنه يوفر مقومات الحياة للإنسان .

وعلاقه الإنسان بالبحار والمحيطات تتمثل فى كونها مصدرا للطاقة والمواد الغذائية ووسيلة للمواصلات ثم هى المنبع الأول لمياه الرى والشرب من خلال البخر .

وعلاقة الإنسان بالجبال تتمثل فى كونها ثوابت تحفظ للأرض توازنها ودورانها وتحميها من عوامل العواصف والرياح ثم تصونها من أن تميد بما عليها من خلق الله من البشر .

وعلاقة الإنسان بالحيوان تتمثل فى كونها مأكلا ومركبا وزينة .

وعلاقه الإنسان بالحشرات تتمثل فى أن فيها علاجا وشفاء للناس .

وإذا انتقلنا من كوكب الأرض إلى غيره مما هو فى ملكوت الله نجد العلاقة القائمة بينها وبين الإنسان :

والعلاقة بين الأرض والشمس تتمثل فى كونها مصدرا لكثير من أسباب الحياة

على أرض لو اختلت هذه العلاقة من حيث المكان أو الزمان أو الدوران لاحترقت الأرض أو جمدت بما فيها من بشر .

وعلاقة الأرض بالقمر والكواكب وكل ما فى ملك الله مما نعلمه أو لا نعلمه كلها مسخر ابقاء الحياة الإنسانية كما أرادها الله لها أن تكون .

حتى الريح وهى تسير السحاب لينزل الغيث فتخضر به الأرض أو تحمل اللقاح فيثمر الزهر والشجر كلها فى خدمه الإنسان علاقات متعددة ومتشعبة ومتبادلة ومحكمة وسبحان الله الخالق وضعها بميزان دقيق ليتفكر أولوا الألباب .

وبغير إسهاب فى مدلولات خلق الله فى الكون وعلاقاتها المباشرة والحيوية بالإنسان نستطيع أن نقول إن هذا الكون الفسيح بهذه الدقة المتناهية كله بما فيه يرتبط بأوثق الروابط والعلاقات بالإنسان حيث يقول الله جلت قدرته :

« وسخّر لكم ما فى الأرض جميعا »

ومن هنا يجب على الإنسان الذى أوتى العقل والحكمة ان يتفكر فى هذا الكون وأن يتدبر علاقاته معه وأن يقيمها على أسس تتوافق مع مشئية الله فى خلقه .

وفى هذه المعنى يقول الرئيس السادات :

« هناك علاقة أيضا مع الكون والخليقة .. لقد سخر لك فى الخليقة كل هذه المخلوقات ... أنت وهذه المخلوقات التى سخرها لك جميعا من صنع صانع واحد هو الله سبحانه وتعالى .. طب ده فيه علاقه بينك وبين الكون ... لازم تحددها .. وتكون عارفها وواضحة وعلى أساس سليم ..

علاقتك مع الأشياء ... مش مع البنى آدمين بس وإنما مع الكون ككون كله ويقول الله سبحانه وتعالى : « تفكروا فى خلق السموات والأرض » .

ويقول : « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » .

هذه هى علاقتك مع الأشياء .. وهو أمر مطلوب . والله يقول لنا .. يقول لنا إن النخيل والشجر والجبال والدواب كلها بتسجد لله وتسبح له مثلنا تماما ... الجبال .. الجماد .. الشجر .. النخيل .. كل ده بيسجد لله هو الذى خلقنا وهو الذى قال لنا هذا .

وكلما اقتربنا منه سنجد أن الراحة تحل علينا لأنه بذلك تحل ألغاز الحياة التى نحياها وتصبح سهلة هينة جدًا ..

إن كل ما حولك من أشياء يسجد لله ويسبح الله وليس فقط الأشياء .. وإنما كما قلت لكم الدواب والطيور .. بل إنها لا تسجد فحسب . وإنما هى أمم أمثالنا .. أمم كما قال الله عز وجل « وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » .

تضم أمما أمثالنا .. طب ما هو يعنى .. دى متعة أننا نعرف الحاجات دى كلها ... نستمتع بها ... تؤنسنا فى حياتنا واحنا ماشيين » .

وبعد مقول الرئيس السادات فى علاقة الإنسان بالكون والأشياء يمكننا أن نلتفت إلى بعض ما قصد إليه لنتدبر معانيه ومراميه :

١ ـ أن البناء الداخلى للإنسان عندما يكتمل بمنهج العقل الواعى يتحتم عليه أن يتأمل فى خلق الله فى السموات والأرض ولا يقتصر جهده على شواغل الدنيا وماديانها وزخارفها . وإنما يتفكر فيما حوله مما هو مخلوق فى هذا الكون بقوانينه وانضباطه وانتظامه وعلاقاته المحكمة ليستخلص بجلاء البصيرة أن ذلك كله وراءه يد الحكمه المقتدرة التى خلقته فيملأ الإيمان قلبه وتسمو روحه وتتوازن حياته .

٢ ـ إن هذه العلاقات المحكمة بين الإنسان والكون والأشياء لم تخلق عبثا أو باطلا وإنما خلقت لحكمة عليا أرادتها مشيئة الله العلى القدير لينتفع بها الإنسان فيما هو حق وفيما هو خير . وفيما يعود على الحياة والأحياء بالترقى والاستمرار وإعمال منهج الله وشريعته فى الأرض كما رسمتها وحددتها الأديان السماوية كلها وكما يقول الله « **تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه** » .

٣ ـ إن مخلوقات الله الأخرى فى كونه أمم مثل البشر لها نظامها الخاص بها الذى لانعرفه .. وكوننا لانعرفه لايعنى أنه غير موجود .. ولكن كل مخلوق فى الكون يسجد لله ويسبح لله ومعنى ذلك أننا لسنا وحدنا فى هذا الكون الذين تتواصل علاقتنا إلى السماء وإنما كل ما فى هذا الكون يعرف الله ويعبده على طريقته ... ـ وأحرى بنا نحن البشر أن نكون خير العابدين لأننا خير المخلوقين .

٤ ــإن تكامل خلق الله فى كونه وترابطه بعلاقات منتظمة يعنى ضرورة الحفاظ على هذا الكون وعلى نواميسه التى وضعها الله له فلا يعمل على تخريبه أو تدميره أو استخدامه فى غير ما خلقه الله له حتى تتحقق الحياة كما أرادها الله على الأرض .. ومعنى ذلك أن السلام الشامل للإنسانية كلها يحقق الانسجام بين مخلوقات الله فى الكون ويحقق مشيئة الله فى الحياة ومن ثم يجب أن يكون مطلبا دينيًا وإنسانيًا فى آن واحد .

٥ ــإن الله وقد سخر كل مافى الكون للإنسان من خلال هذه العلاقات القائمة بينها فإن له أن يستمتع وينتفع بكل عطائها إعمالا لقوله تعالى : « **ولا تنسى نصيبك من الدنيا** » وأن يعيش حياته بيقين الواثق فى الله والآمل فيه لتكون حياته سهلة وميسرة بتوازن فيها زاده المادى والروحى ــ أى يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا .

وهكذا وبهذا الفهم لعلاقة الإنسان بالكون تنسجم الحياة كلها وبكل مكوناتها ومفرداتها من الأشياء والبشر كما يكتمل انسجامها وتوافقها عندما تكتمل الدائرة بتوافق الإنسان نفسه وبتكيفه مع مجتمعه .

وهكذا عندما يتحقق البناء الداخلى للإنسان بكل مقوماته وتقوم علاقاته بأبعادها الثلاثة مع نفسه والمجتمع والكون الذى يعيش فيه على أسس سليمه وصحيحة .. هكذا يوجد الإنسان المتزن الشخصية والمتكامل النمو والذى هو غايتنا جميعا ونحن نسعى لإيجاد وبناء الإنسان المصرى الجديد .

الباب الثالث

السياسة الداخلية فى مصر

لقد أثبتت مصر فى السنوات العشرة الماضية أنها تمتلك ميراثا حضاريًا هائلا يمكنها من فهم ما يحيط بها من متغيرات ثم اتخاذ الموقف الملائم للتكيف مع طبيعة هذه المتغيرات .

ولم تكن حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ بكل ما حققته من انتصارات ما أسفرت عنه من آثار على موازين القوى فى المنطقة إلا دليلا على قدرة النظام السياسى فى مصر على أن يستخلص من واقع وحركة المجتمع الدولى ومتغيراته حسابات عملية دقيقة استطاع بها أن يحدد هدفه ويرسم خططه ويشق طريقة إلى تحرير أرضه كما أثبتت هذه الحرب أن الإنسان المصرى الذى صنع أول حضارة وأول دولة وحكومة فى التاريخ ... والذى أعطى للإنسانية من خلاصة فكرة وعلمه ما يمكنها من أن تفتح لنفسها عصر نهضة من جديد .. هذا الإنسان أثبت للعالم كله قدرته على استخدام أحدث أساليب العلم والتكنولوجيا العسكرية المتطورة إلى حد اعتبرت معه حرب أكتوبر نقطة تحول جديدة فى كيفية إدارة المعارك العسكرية

كما أن مبادرة السلام التى قام بها الرئيس السادات إلى القدس عام ١٩٧٧ لم تكن إلا دليلا جديدا على فهم حضارى لكيفية التعامل مع المشكلات السياسية والعسكرية إذ أنها لم تقم على أساليب تقليدية تعارف عليها منفذوا السياسة وإنما ابتكرت وسائل جديدة هزت أركان الدنيا واستنفرت اهتمامه وانتباهه لما يجرى فى المنطقة وعبأت قوى الرأى العام الدولى لتقف إلى جانب الحق والعدل فى قضايانا الوطنية والقومية .

وإذا كانت حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ لم تكن إلا وسيلة لإقرار السلام العادل على أرضنا .

وإذا كان السلام العادل ليس إلا وسيلة لإقرار الأمن والأمان وفتح أبواب البناء والرخاء على اتساع أمتنا .

فإنه من هذا الفهم الحضارى فإن مجتمعنا يعيد صنع سياساته الداخلية على

نسق يتوافق ومعطيات حرب أكتوبر ومبادرة السلام ذلك أن استثمار نتائج النصر ومناخ السلام لإعادة بناء الحياة الاقتصادية والسياسية فى المجتمع يعد أمرا ضروريًا ومنطقيًا لجنى الثمار التى طال شوق الجماهير الشعبية إليها بعد سنوات الكفاح الطويل .

وفى لقائه مع الشباب حرص الرئيس القائد على أن يشير إلى أهم المتغيرات الاقتصادية والسياسية فى مصر فى هذه المرحلة والتى ينتظر من ورائها أن تحقق نهضة لهذا الشعب .

فما هى هذه الأوضاع الاقتصادية والسياسية الجديدة كما شرحها السيد الرئيس ؟

الفصل الأول

الأوضاع الاقتصادية

إن أخطر ما يواجه به شعب هو أن تتبدد موارده الاقتصادية بعيدا عن مجالات التنمية ... أو أن تستنزف جهوده وطاقاته فى غير عمليات البناء والرخاء.

عندئذ يطحن الشعب فى الهواء .. ويدور حول نفسه فى دائرة مفرغة بغير عائد.

وعندئذ تزداد الهوة والفجوة بينه وبين الشعوب الحية . فتتسع مساحات تخلفه يوما بعد يوم إلى حد يعجز معه تماما عن الأمساك بأساليب ووسائل التقدم . وإذا رجعنا بذاكرتنا إلى التاريخ لنعرف أن تقرير كامبل نبرمان فى انجلترا عام ١٩٠٧ قد أوصى بضرورة خلق حاجز بشرى غريب بين مشرق الأمة العربية ومغربها ليمنع توحدها ويستنزف طاقاتها ليبقى على تخلفها ويتحقق للإمبراطورية البريطانية ضمانة الاستمرار فى السيطرة على هذه المنطقة.

وإذا استعرضنا صراعنا الدامى مع إسرائيل منذ وعد بلفور عام ١٩١٧ وقيام دولة إسرائيل حتى الآن سوف نجد أن مقوماتنا قد احترقت مع نيران المعارك فى حين لو استثمرت هذه الإمكانات فى فروع التنمية المختلفة لكان لمصر الآن وضع وشأن آخر.

ومن ثم فان السياسة الاستعمارية كانت قد رسمت خططها على إنهاك مصر اقتصاديًا ودفعها إلى حافة الانهيار وبعدها يصبح ظهرها إلى البحر ووجهها إلى الحائط.

ولقد واجه الرئيس السادات هذه الحقيقة وأدرك أبعادها وعمل على أحباط مخططاتها وهو فى مستهل ولايته للرئاسة حيث يقول فى ذلك :

«من أخطر المشاكل التى واجهتنى يا أولادى .. بعد أن توليت المشاكل المتراكمة بالنسبة للشعب فى قوته - فى الفرص المتاحة أمام شبابنا الأفق المفتوح .. حتى يستطيع الشباب أن يحقق ذاته ... بطرق كثيرة مفتوحة أمامه أن يختار منها مايشاء .. لقد وجهت يوم أن توليت وقبلها ... فى سنة ١٩٦٩ صدر تقرير عن منظمة من المنظمات الاقتصادية فى أمريكا ... وهذا التقرير يقول : سيبوا عبد الناصر يعمل ذى ماهو عايز ... وكنا فى ذلك الوقت فى مواجهة مع أمريكا كما تعلمون ... التقرير يقول : سيبوا عبد الناصر يفعل ما يشاء ويعمل زى ما هو عايز .. اصبروا عليه لسنة ١٩٧٢ لأنه فى سنة ١٩٧٢ اقتصاديًا مصر ستسقط كاملة .

ويستطرد الرئيس فى شرح هذا المعنى فيقول :

«مات عبد الناصر عام ١٩٧٠ أول حاجة عملتها ندهت لوزير الاقتصاد وفى ذلك الوقت كان حسن عباس ذكى قلت له تعالى قل لى إيه الوضع الاقتصادى عندنا فى البلد ؟ بعد أن توليت بيوم . قالى لى : أنا عايز أقول لك إن وضعنا الاقتصادى يكاد يكون منهارا وكل اللى أنا باعمله النهاردة أنى بألبس طاقية ده لدة ... وعباس عايش وموجود وحى .. أى أن البلد تلف وتدور فى دوارة لأنه ليست هناك عملة أجنبية .. موارد البلد لاتكفى لاستيراد كل الحاجات المطلوبة وخصوصا للبناء والتنمية وكل ما كان يفعله أن يستدين من واحد يسدد واحد شوية ويعمل بالباقى .. وهكذا بدل ما يكون مستدين من واحد أصبحوا اثنين والسنة اللى تليها يستدين مرة ثانية فيصبحوا ثلاثة وهكذا .. وعمال ينقل الطواقى ... لكن الكارثة محققة» .

وفى تصوير مدى فداحة هذه الكارثة ومدى الانهيار الاقتصادى التى كانت مصر قد وصلت إليه خاصة بعد الحصار الاقتصادى الذى فرضته أمريكا وغرب أوربا على مصر فى أواخر الستينات وامتناعها عن تزويد مصر بالقمح الذى يمثل رغيف العيش للمواطن المصرى وعجز الاتحاد السوفيتى أو تقصيرة عن تغطية هذا العجز أو تدارك هذا الانهيار الاقتصادى الذى تراكم بسبب الصراعات المتعددة

التى دخلت فيها مصر وفى مقدمتها حروبها مع إسرائيل فى تصوير هذه الكارثة المروعة يقول الرئيس السادات :

كانت لمة هذا يا أولادى فى عام ١٩٧٢ عندما فوجئت بمندوب يأتينى من مكنامارا مدير البنك الدولى إلى اليوم ـ أرسل مندوبه ليقول لى أبحث عن مليون دولار بأى شكل وأرسله لى لأن بنك الاستيراد والتصدير الأمريكى تقدم بطلب للبنك الدولى لإعلان إفلاس مصر.

ليه ؟؟

حسب الأوضاع الاقتصادية عندما لاتسدد الأقساط والديون اللى عليك يصح لهؤلاء الناس أن يذهبوا إلى البنك الدولى ويطلبوا إعلان إفلاس مصر لأنها غير قادرة على تسديد التزاماتها ..

وإذا صدر هذا القرار من البنك الدولى أصبح الأمر خطير جد وظللت أبحث أجمع المليون دولار لمدة أسبوع فى مصر مع أن المليون دولار كما تعلمون لا يمثل قيمة فى أمريكا ... عند أى من الأمريكيين أصحاب الثروة .. بل وعند العرب الأن .. بقيت أسبوع أجمع فى المليون دولار وأرسلته لمكنا مارا الذى أعطاه لبنك الاستيراد والتصدير الأمريكى وتفادينا إعلان إفلاسنا لأن إعلان إفلاسنا كان معنا أننى لن أستطيع أن أحضر لكم رغيف العيش .. ليه ؟ لأن الموردين والبنوك اللى بتسلفنى بالأجل وباشترى وأمشى نفسى ده مش حيحصل ولن أجد من يقرضنى .. » .

يقينا كانت صورة أو لوحة داكنة واقع حياة المجتمع المصرى فى مطلع السبعينات ليست فى حاجة إلى تعليق .

فمصر العظيمة ... مصر الحضارة ... لاتجد مليون دولار تسدد به قسطا من ديونها .. مصر العظيمة .. مصر الحضارة مهددة بإعلان إفلاسها .. وإنساننا المصرى البطل المناضل مهدد بأ لايوجدقوت يومه ولا حتى رغيف العيش ..

أى كلمات يمكن أن تصور هذه المأساة ...

وأى جهد عبقرى حزين يمكن أن يتجاوزها ...

ولكنا والله لانتعداها حتى نتسائل فى مرارة :

أين كان الاتحاد السوفيتى الصديق صاحب معاهدة الصداقة الشهيرة ؟

وأين كان المناضلون من زعماء جبهة الصمود والتصدى العربية الذين حاربنا لهم حتى آخر قطرة دم وآخر دولار فى الاقتصاد المصرى ؟ .

لنا الله .. ولمصر الصابرة الصامدة المستقبل رغم معاناة السنين ودموع الكادحين المحاربين فى ثبات واستبسال ..

ولكنا ولكى تكتمل الصورة الحزينة المريرة فلنصبر لنرى أجابات الرئيس القائد على ماسبق من تساؤلات :

يقــول :

لعل البعض يقولون إن علاقتنا بالاتحاد السوفيتى تكفى .. وأن الأتحاد السوفيتى لن يتأثر بهذا الكلام لأنه ليس عضوا فى البنك الدولى فلايهتم به وأنه يمكن دعم علاقتنا بالاتحاد السوفيتى ونمشى .. لكن الرد على ذلك سهل :

أمام الموردين أو البنوك التى أستدين منها وإذا توقفت عن الدفع سيتوقفوا عن إقراضى ولا أستطيع شراء القمح .. هؤلاء الموردين والبنوك كلهم من الغرب وليسوا من الاتحاد السوفيتى .. والاتحاد السوفيتى فى هذه الحالة لم يكن سيقف إلى جانبك اقتصاديًا .

الاتحاد السوفيتى يبيع فقط السلاح ؟ نعم .. مصانع فيها التكنولوجيا قديمة ومستهلكة ؟نعم .

لكنه لا يقف إقتصاديًا إلى جانبك فى عملية مثل القمح إذ أننى أقترض بالأجل ثم أظل أسدد كل عام ... وعن موقف الزعامات العربية إزاء مصر وشعب مصر إبان المحنة الاقتصادية الرهيبة التى كان فيها الشعب المصرى يتضور جوعا من أجل دفاعه عن القضايا العربية يقول الرئيس :

«عندما فتحت القناة عام ١٩٧٥ .. وذلك جزء من السياسة التى أحدثكم عنها أيامها .. لو أننى أخذت بكلام العرب جميعا والفلسطينيين أولهم .. كانوا يقولون كيف يفتح السادات قناة السويس .. لا يجب أن تفتح قناة السويس أبدا .. مصر

تبقى هكذا فنقول لهم طيب ياجماعة ده احنا ينصرخ .. ده احنا حاجة وثلاثين مليون وماشين فى الأربعين والخمسة وأربعين وبنصرخ ومعندناش مليون دولار لما بيطلب منا قسط .. وباقعد أجمعه فى أسبوع ... لا ... كانت الوطنية والقومية بالنسبة لهم ألا تفتح قناة السويس التى دفع أولادنا دماءهم لكى يعبروها ولم يفتحها لنا أحد من عنده .. واصبحت القناة ملكنا .. فلماذا أمتنع ؟ .

هذا هو الخط العربى .. هذا هو المفهوم العربى .. أننا ننتحر ونعاقب أنفسنا ثم نسمى ذلك بالكفاح وشعارات البطولة » .

وبهذه الصورة المأساوية يتضح الوضع الاقتصادى فى مصر فى أوائل السبعينات .. ويتضح مدى جسامته وخطورة المشكلة ... كما يتكشف مدى وفاء الأصدقاء وقت الأزمة ...

ومن هنا كان على مخطط السياسة المصرية أن يفجر داخل هذا الشعب طاقات الانطلاق العنيد ليعبر بصمته وصبره بحار الأزمة المتلاطمة فماذا فعل ؟ وماذا كان منه ؟ واسمعوا قول الرئيس السادات عن إحساسة بهذه الأزمة وانفعاله بها كأولوية أولى للمشكلات الوطنية .

يقول :

« أخرج من ذلك بأن أكبر وأخطر ما واجهته لم تكن الآلام والهزيمة ومرارة أبعاد الهزيمة فى أنفسنا ... والجرح الذى صنعته فى صدر كل واحد منا .. والمهانة التى كنا نحسها وكانت فوق ما يحتمل الإنسان .. لكن ذلك لم يكن أخطر ما فى الأمر ... كان أخطر شىء أننى أرى أننا نسير فى طريق وبأسلوب سيوصلنا فى يوم من الأيام إلى أن لا أجد رغيف العيش أعملة للشعب . وأن لا أجد الطعام .. وهذا أمر لم يكن فى مقدورى تحمله .

لقد كان ممكنا أن أوقف مصنع الأسمنت عن العمل وكان ممكنا أن أوقف مصنع الأولومنيوم عن العمل .. لكن لم يكن ممكنا أن أؤجل ثلاث وجبات يريدها كل إنسان على أرض مصر أبدا ... أبدا » .

ومن هذه البداية بدأت السياسة الاقتصادية المصرية تتشكل فى ثوب جديد

لاحتواء الأزمة ولتوفير مقومات الحياة للانسان المصرى .

وكانت أول الأسس والمبادىء التى قام عليها الإصلاح الاقتصادى هى الانفتاح الاقتصادى

سياسة الانفتاح الاقتصادى :

الانفتاح الاقتصادى يعنى فى بساطة تعاون مصر مع كل الشعوب العربية والأجنبية من أجل تحقيق التنمية الشاملة فى المجتمع .

كيف ذلك ؟

أولا :

بأن نسمح للخبرة الدولية بما وصلت إليه من تقدم علمى وتكنولوجى أن تعمل فى مصر لتحقق من خلال نشاطها تطويرا فى أدوات ووسائل الإنتاج تزيد معه معدلات الإنتاج بالقدر الكافى لإشباع احتياجات الجماهير الشعبية .

ثانيا :

بأن نسمح لرؤوس الأموال العربية والأجنبية بأن تساهم مع رأس المال الوطنى فى إقامة المشروعات الضرورية واللازمة لاستكمال هياكلنا الإنتاجية بالقدر الذى يحد من تصاعد معدلات الاستيراد ووصولا إلى توازن الميزان التجارى وتوفير قدر من العملات الصعبه يكفى لإقامه مشروعات استثماريه جديدة .

وعلى أن يتم ذلك كله فى إطار الخطة الوطنية وفى الحدود التى لا تضر الاقتصاد الوطنى أو المشروعات الاقتصادية القائمة بالفعل .

ولعله عند هذه النقطة يطرح تساؤل مؤداه .. هل كان الانفتاح الأقتصادى فى مصر ضرورة ؟ ؟

وعلى الرغم من أن صورة المجتمع المصرى إبان السبعينات عندما وقف عاجزا عن العثور على مليون دولار لسداد أقساط ديونه تكفى للرد المقنع على هذا السؤال . غير أننا سوف نلجأ إلى التحليل الاقتصادى العام لبيان مدى أهمية وضرورة الانفتاح الاقتصادى لمصر .

لقد كان من نتاج الصراع المستمر مع إسرائيل أنه تمت عسكرة الاقتصاد المصرى بحيث تحولت معظم الهياكل الإنتاجية لخدمة القوات المسلحة فى معاركها المشتعلة أو المنتظرة مع العدو ... ومن ثم تقلص الإنتاج المدنى إلى حد لم يعد يكفى لإشباع الحاجات المتزايدة للجماهير.

ومن ناحيه ثانية وقفت الدول الأوربية ـ فى مجملها ـ موقفا منحازا لإسرائيل فامتنعت عن تزويد مصر بكل احتياجاتها الضرورية من المصانع أو المواد المستهلكة.

ومن ناحيه ثالثة فإنه على الرغم من أن الهياكل الإنتاجية فى مصر كانت قد استهلكت وأصبحت فى حاجة ملحة إلى كثير من الإحلال والتجديد فإن الموارد الوطنية المتاحة قد قصرت عن الوفاء بهذا الغرض كما أن الاتحاد السوفيتي لم يكن يبعث إلينا إلا بالآلات التى تخلف مستواها بفعل التقدم العلمي ولم تعد تساير روح العصر.

ومن ناحيه أخيرة فإن مصر وهى دولة نامية لا تتمتع بالاكتفاء الذاتى بمعنى أنه لا يتوافر لديها كل مصادر التمويل أو المصادر الأوليه من المواد الخام اللازمة للصناعة، أى أنها عاجزة عن توفير كل مستلزمات الإنتاج محليا..

ومن هنا عددتكون فرىإنتاج المختلفة سواء فى الزراعة أو الصناعة لا تكفى بذاتها للوفاء باحتياجات الشعب الذى يعانى من مشكلة الانفجار السكانى وتزايد مستوى طموحه وتطلعاته فى الوقت الذى لا تتوافر فيه كل مستلزمات الإنتاج اللازمة لرفع وزيادة معدلات الاستثمار.

فإنه يصبح محتما أن ينفتح المجتمع المصرى على كل شعوب الدنيا المتقدمه لكي يأخذ منها ويعطيها بالقدر الذى يحقق له احتياجاته ويوفر له ما يفتقر إليه من حاجات علمية وتكنولوجية ومادية وفنية لإعادة بناء هيكله الإنتاجي من جديد.

وفي شرح مضمون ومحتوى فلسفه الانفتاح الاقتصادي يقول الرئيس السادات:

«أخطر ما كنت أواجهه.. ذلك المفتاح الذى يسمى بسياسه الانفتاح الاقتصادى اللى عملت بدءا من عام ١٩٧٤ وكان علينا بواسطته أن نعبر الحواجز

والسدود المحيطة ونحاول التغيير فى أسلوب تعاملنا .. عملنا ستار حديدى .. حاولنا بقوانين وبفلسفة اشتراكية علمية اللى هى الماركسية .. وقعنا داخل هذا السور الحديدى منغلقين على أنفسنا ونقول إننا سننمى أنفسنا ولسنا محتاجين لأحد فى العالم وارتكبنا الغلطة الجسيمة لأنه لا يوجد من يقدر على أن ينعزل عن العالم حتى الاتحاد السوفيتى نفسه لا يقدر على أن ينعزل الاتحاد السوفيتى كان قد بدأ يشترى ثمانية ملايين طن قمح واليوم بيشترى فى السنة خمسة وعشرين مليون طن ـ وستتصاعد الكمية كل عام .. فهو لا يستطيع أن يعزل نفسه عن العالم أبدا » .

ويستطرد الرئيس قائلا :

«كان هدفى من سياسة الانفتاح يا أولادى أن أفتح الدنيا .. أفتح الأبواب .. لهواء جديد .. وأزيل كل الحواجز .. كل الحوائط التى كنا قد بنيناها لكى نخنق أنفسنا بهدف إيه ؟ .

بهدف يا أولادى أنى ما أوصلش لليوم اللى الشباب منكم ... وده أخطر حاجة تحصل فى أى شعب .. أن الشباب يطلع يلاقى العملية سوده قدامه وهو عايز يحقق ذاته » .

ولعله يجدر بنا بعد مقولة الرئيس السادات السابقة إلى أن نشير إلى أن سياسة الانفتاح الاقتصادى التى رسمها وخطط لها الرئيس القائد قد شجعت رؤوس الأموال من كل أنحاء العالم على أن تأتى إلى مصر لتشارك فى البناء والتعمير ولتحمل معها أحدث ما وصل إليه العالم من العلم والتكنولوجيا وتتيح آلاف الفرص للعمالة المصرية . ولقد كان لهذه السياسة أثرها فى توفير وتعدد مصادر التمويل وعدم اعتمادنا على الأنظمه العربية وحدها .. والتى لولا هذه السياسة لاستطاعت أن تحدث هزة كانت هذه الأنظمة تتمناها لعرقلة مسيرة الاقتصاد المصرى .

ولعله أكبر دليل على نجاح هذه السياسة أن الموازنة المصرية الحالية هى أكبر ميزانية فى تاريخ مصر وقد خلت تماما من أى دعم أو معونات عربية ... وهذا دليل آخر على أن مصر العظيمة بشعبها المناضل تستطيع أن تبنى وتنتج وتتجاوز المحن

بجهود أبنائها وعرق شبابها دون أن تسلم إرادتها لأحد .

ويذكرنا الرئيس السادات أيضا كيف حاول بعض الزعماء العرب أن يشترى إرادة مصر فى زحمة أزمتها الاقتصادية غير أن هذه المحاولة قد أحبطت فى مهدها . يقــول :

« أمام المعركة اللى كنا فيها .. تذكرون أن العرب عام ١٩٧٨ عندما اجتمعوا فى بغداد بعثوا .. أرسلوا لى وفدا هنا يسلم لى إنذار يقول لى : تعالى وسوف نعطيك خمسة مليارات دولار ونصف فى السنة وتمشى بالكلام اللى احنا حنقوله لك .. يعنى بيشتروا إراده مصر وقرار مصر بخمسة مليارات دولار ونصف .

واليوم يا أولادى أتساءل لو أننى وافقت على هذا الكلام هذه السنه ١٩٨١ العراق عملت الحرب وخرجت من الدول المصدرة للبترول وأصبحت تأخذ من الدول العربية مليار دولار شهريًا لقد كانت العراق من بين الذين سيعطونا الخمسة مليارات ونصف طيب كان يبقى موقفنا إيه النهارده .

ثم شيء آخر القذافى كان من بين الذين سيعطونا الخمسة مليارات ونصف والقذافى لم يتعهد بشيء وأوفى به أبدا لا للفلسطينيين ولا للعرب ولا لأى مخلوق .. إذن فالنتيجة الحتمية أن اشحذ على الأبواب .. ويشاء الله أن هذا البلد هو الوحيد فى العالم الذى يجوع ولا يسلم وهكذا رفضت أن أضع مصر بقيمها وتاريخها وحضارتها ... رهينة لمن يريدون التحكم فيها وإملاء إرادتهم عليها .. » .

وخلاصة ذلك أن الانفتاح الاقتصادى كان هو الجسر الذى عبرت عليه مصر من الانغلاق إلى الانفتاح .. من العزلة إلى معايشة التطورات العالمية - من الحصار إلى التعامل مع كل دول العالم .

وكان الانفتاح الاقتصادى هو الأداة لتطوير وتحديث البنية الاقتصادية فى مصر لتعتمد على نفسها وعلى قدراتها دون أن تعيش عالة على غيرها أو تبيع إرادتها وقرارها لمن حاولوا شراءها .

ولقد عبرت مصر بالفعل بهذه السياسة عنق الزجاجه ودخلت مجالات التنميه والبناء والرخاء فى حين أنها لو قبلت العروض التى قدمتها الزعامات العربية فى بغداد

لكانت اليوم لاتجد مما قرروه شيئا وتفاقمت الأزمه بغير حل .

فتح قناه السويس :

كان لفتح قناه السويس عام ١٩٧٥ آثار اقتصادية وسياسية ودولية هامة بعد أن ظلت مغلقة فى وجه الملاحة الدولية منذ عام ١٩٦٧ .

وكان منطقيا ومصر تواجه أزمه اقتصادية خانقة أن تمد بصرها وفكرها إلى قناة السويس باعتبارها مصدرا هاما للتمويل الوطنى ذلك أن دخل مصر من رسوم مرور البواخر والناقلات فى القناة يعد ضرورة حيوية لإعاده بناء الهيكل الاقتصادى المصرى وتوفير رأس المال اللازم للاستثمار وتعويض ما فاتنا بسبب الحرب وبسبب انعدام المساعدات العربية فى ذلك الحين .

وفى ذلك يقول الرئيس السادات :

« أكملت الخط بتاعى عام ١٩٧٥ فتحت القناه .. فأعطتنى فى السته أشهر ٢٠٠ مليون دولار وفى السنه الكاملة فى نهايه عام ١٩٧٦ أعطتنى ٤٠٠ مليون دولار واستمر التصاعد ٤٠٠ ـ ٤٥٠ ـ ٥٠٠ ـ ٦٠٠ ـ ٧٠٠ . فى السنة الماضية أعتقد أن القناة دخلها حوالى ٦٥٠ مليون دولار وهذه السنه فى نهايه عام ١٩٨١ وبعد المشروع الأول الذى بدأته يوم أن فتحت القناه .. فأنا لم أكتفى بفتح القناة ... هذا المشروع سيأتينى منه ٤٠٠ مليون دولار .. بدأنا المشروع الذى استغرق خمسة أعوام وانتهى السنه الماضية عندما افتتحته فى ديسمبر ١٩٨٠ .. وهذه السنه يا أولادى يدخل لنا من القناه مليار ومائتى ألف دولار » .

هذا ولا يقف الأثر الاقتصادى لافتتاح القناة عند هذا الحد وإنما هو يعود بفوائض اقتصادية على كل المجتمعات بما توفره من نفقات النقل وتخفيض أسعار السلع التجارية تبعا لذلك وهذا الأثر سوف يعود على مصر أيضا وفقا للحجم الكلى لما تستورده من المنتجات العالمية .

وهنا يتعين أن نتأمل فى هدوء مضمون القرار المصرى فى مواجهة الموقف العربى الغاضب من افتتاح القناة لندرك :

أيهما أجدى لمصر ان تحصل اليوم على مليار ومائتى الف دولار من القناة أم

كانت تنصاع للموقف العربى وتبقى على إغلاق القناة ؟ .

وأيهما أجدى لمصر أن تعتمد على مواردها الذاتية وأن تتحرر إرادتها أم تعيش على المعونات والمساعدات وتبقى إرادتها رهينة فى أيدى من يساعدونها ؟ .

وأيهما أجدى لمصر أن يقف المجتمع الدولى مؤيدا للقرارات الحضارية للقيادة المصرية التى ترعى المصالح الدولية ام يتخذ موقفا مناقضا لإرادة المجتمع الدولى كله ؟ .

بغير شك سوف تجئ الإجابه فى صالح الموقف المصرى والسياسة المصرية خاصة وأن التجّربة العملية والواقع المعاش حاليه قد أثبت ذلك فى وضوح .

الاكتشافات البترولية :

على الرغم من أن مصر كانت تستورد جزءا كبيرا من حاجتها من البترول فإنها خسرت أهم مصادرها منه فى سيناء منذ حرب ١٩٦٧ وأثناء معارك عام ١٩٧٣ التى خاضتها مصر من أجل أمتها العربيه كلها فإن الدول العربية المنتجة للبترول وفى مقدمتها ليبيا القذافى لم تسارع الى مد مصر باحتياجاتها منه بما يكفى لسد الاحتياجات العسكرية والمدنية منه .

غير أنه ما لبثت معركه عام ١٩٧٣ أن تحقق أولى أهدافها بفرض الإرادة المصرية والعربية على إسرائيل لتقبل بفض الاشتباك الأول والثانى وتقبل بالانسحاب من الأراضى العربية المحتلة وفقا لقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ حتى استدار الرئيس السادات يبحث فى إمكانيات مصر البترولية .

وفى ذلك يقول :

« ركزت أنظارى أيضا على البترول كما فعلت مع قناة السويس فى عام ١٩٧٦ كنا مكتفين باستهلاكنا وهو حوالى ١٢ مليون طن وبعدها شيئا فشيئا بدأنا نصدر .. هذه السنة يا أولادى ستعتمونى أقول إننا ننتج حوالى ٣٠ مليون طن منهم ١٢ مليون أو ١٣ مليونا لاستهلاكنا المحلى و١٧ أو ١٨ مليونا نصدرها وتعود على البلد بالعملة الصعبة .

ويشاء السميع العليم يا أولادى أن يعطينا البترول فى العام الماضى الذى مازلنا

فى مرحلة تركيب أنابيبه لوجوده تحت الماء وسوف يكون دخلنا منه ١٢ مليار جنيه مصرى يعنى حوالى ٢٠ مليار دولار » .

وهكذا يصحح الوضع الاقتصادى فى مصر...

وهكذا تتوازن ميزانية مصر لأول مرة...

وهكذا تتخطى مصر الأزمة ...

ولكن دعونا نتساءل ما هى الآثار التى ترتبت على إصلاح الهيكل الاقتصادى فى مصر؟ .

نتائج الإصلاح الاقتصادى :

بالقطع فإن الفلسفة الاقتصادية الجديدة وما ترتب عليها من إصلاح الهيكل الاقتصادى لم تكن غاية فى ذاتها وإنما كانت وسيلة لتحقيق الطموحات الشعبية فى حياه أفضل .

وإذا كانت الجهود الاقتصادية ونتائجها تحتاج إلى فسحة من الوقت ليلمس آثارها كل المواطنين فإن بشائر هذه الجهود قد أصبحت واقعا يعيشه المجتمع فى هذه المرحلة .

ولنلق نظرة على بعض هذه النتائج .

أولا : ربط الأجور بالأسعار :

إن ربط الأجر بالأسعار فى هذه المرحلة تحتمه ضرورات اقتصادية ومعنوية للجماهير .

أما الضرورات الاقتصادية فتتمثل فى الارتفاع المتزايد للأسعار بشكل عجز من ملاحقته مستوى الدخل العادى للمواطن المصرى لقد كان مرجع هذا التصاعد للأسعار فى جزء كبير منه إلى معدلات الأسعار الدولية التى تصاعدت بفعل ارتفاع تكلفة المنتجات المصنعة لإغلاق قناة السويس وارتفاع أسعار البترول مما ألقى عبئا اقتصاديًا جديدا على المشروعات الصناعية والتجارية العالمية .

ومن البديهى أن ارتفاع أسعار نقل أو تكلفة الوحدة المنتجة لا يزيد من أسعارها فقط وإنما ينعكس بالزيادة على كل السلع البديلة ثم يمتد ليشمل كل

السلع المتداولة فى إطار التجارة الدولية .

أما الضرورات المعنوية فتتمثل فى أن الإنسان المصرى وقد تحمل معاناة طويلة بفعل الصراع الدامى مع إسرائيل ودفع ضريبة الدفاع عن نفسه وعن أمته العربية . قد استشعر أن عهدا جديدا لا بد وأن يجئ مع السلام وأن ظروفه المعيشية والحياتية لا بد وأن تتغير بتغير الواقع الذى يحيط به ومن ثم بات ينتظر تحسنا ملحوظا فى مستوى معيشته بعد أن اجتاز عصر الحروب والقتال وانتقل إلى عصر السلام .

وفى ذلك يقول الرئيس السادات :

« هذه أول مرة فى تاريخ مصر تربط الأجور بالأسعار بمعنى أنه إذا ارتفعت الأسعار وليس الارتفاع الاصطناعي الذى يوجد لدينا اليوم يا أولادى ـ ارتفاع الأسعار الذى اقصده هو الذى يأتينا فى شكل تضخم من الخارج ... فعندما اشترى سلعة من الخارج يكون ثمنها مرتفعا وبالذات سلع التموين إذ أننى لا أنتج كل طعامى ولذلك استورد .... فأبقيت ١٥٠ مليون جنيه غير الـ ٤٠٠ مليون جنيه التى وزعت بحيث لو ارتفعت رغما عنى الأسعار فإننى لا أبيعها للشعب بالسعر الذى جاءت به من الخارج وأتدخل بمبلغ ١٥٠ مليون جنيه وأعطى علاوة اسمها علاوه الأسعار ..

وهكذا لأول مره تربط الأجر بالأسعار .

الارتفاع الذى حدث فى الأسعار يا أولادى مصطنع عندنا .. سمعتونى أتحدث فى خطبة احتفال مايو عن الأسعار التى رأيتها وأننى حملت المحافظين مسئولية الحفاظ على هذه الأسعار » .

ولعلنا نقف قليلا أمام قول الرئيس إن ارتفاع الاسعار عندنا مصطنع .. كيف ؟ .

لقد تبين أن كثيرا من السلع التموينية التى يتركز عليها الطلب الجماهيرى تصل الى المواطنين عن طريق قنوات غير شرعية وباسعار مبالغ فيها ومعنى ذلك أن هناك فئات طفيلية تعمل بوسائلها المختلفة على الحصول على هذه السلع التموينية وحبسها عن المواطنين ثم تعيد بيعها مره أخرى فى السوق السوداء .

ومؤدى ذلك أن اختفاء كثير من السلع أو ارتفاع أسعارها يرجع فى حالات كثيرة إلى التلاعب فيها .

ومن هنا فإن إلزام المحافظين بضرورة المحافظة على ثبات الأسعار يعنى إلزامهم بالقضاء على أساليب ووسائل التعامل فى السوق السوداء وخارج التسعيرة المقررة الأمر الذى يترتب عليه عملا إغلاق دوائر نشاط القوى الطفيلية وانسياب السلع التموينية فى قنواتها الشرعية وبأسعارها الرسمية .

ولعله يطرح تساؤل هنا عن كيفيه ثبات الأسعار ؟

إن سعر أى منتج يتحدد وفقا لكمية المعروض منه بالقياس إلى الطلب عليه . أى أنه فى حاله نقص الكميات المعروضة من السلعة عن حجم الطلب عليها يرتفع سعرها .

وفى حالة زيادة حجم المعروض منها عن مستوى الطلب عليها فينخفض سعرها .

وبديهى أنه كلما تزايد حجم الإنتاج وارتفعت معدلاته كما وكيفا كان ذلك دافعا لانخفاض الأسعار وتحقيق فائض انتاجى يصلح للتصدير وتوفير قدر من العملات الصعبة يمكن إعاده استثمارها من جديد .

إذن فتثبيت الأسعار يستلزم أمرين أحدهما العمل على زيادة معدلات الإنتاج مما يكفى حاجات الاستهلاك . وثانيها الرقابة على منافذ توزيع السلع والإشراف على الأسواق ودعم الأجهزة المعنية فى هذا المجال .

ولعل ما أعلن من أن قانونا سوف يشدد العقوبة على التعامل فى السلع التموينية فى السوق السوداء سوف يصدر وسوف يحكم تطبيقه سيكون له أكبر الأثر فى القضاء على الاختناقات المفتعلة فى كثير من السلع .

شركات الأمن الغذائى :

كان للتجربة الأليمة التى عاشتها مصر فى مطلع السبعينيات والتى عجزت فيها عن تدبير مليون دولار رغم ضآلتها والتى كانت مهدده خلالها من إشهار إفلاسها وعدم قدرتها على توفير لقمة العيش للمواطن .

كان لهذه التجربة أثرها فى أن وضعت السياسة الاقتصادية على رأس اهتماماتها توفير الأمن الغذائى للمواطنين .

وما كان الانفتاح الاقتصادى وربط الأجور بالأسعار إلا خطوات عليه تستهدف هذه الغاية .

وعلى نفس الطريق أمر الرئيس السادات بإقامة مجموعة من الشركات يكون هدفها الأساسى توفير الغذاء للجماهير وبأسعار مناسبة وبكميات كافية وبحيث تتعامل هذه الشركات مع المنتج مباشرة دون وساطة .

ولنتعرف على فلسفة شركات الأمن الغذائى من حديث الرئيس السادات عنها حيث يقول :

« نظام شركات الأمن الغذائى نحن نطبقه على غرار شركة سويسرية مشهورة لها فروع فى كل أنحاء سويسرا يدخلها المواطن فيجد فيها الطعام والشراب والملبس ... وكل ما يحتاجه بأرخص الأسعار ... لأنها جمعيه تعاونيه تأخذ من المنتج وتعطى للمستهلك ولا يوجد فى الوسط من يرفعون الأسعار من ١٢ الى ٨٠ لأ .. هى فى النص .. وجمعية تعاونية اللى بتشتريه من السوق لها ثمنه ١٠ تبيعه بـ ١٢ فتريح المنتج والمستهلك هذه هى شركات الأمن الغذائى والشركات التى سمعتم عن تكوينها وتتكون باستمرار هذا هو هدفها ... وهذا الجهاز سيكون جاهزا فى نهاية هذا العام إن شاء الله » .

وهكذا يتبين أن الضرورات الحياتية للمواطنين وبصفة أساسية فى مجال الغذاء قد أخذت طريقها إلى الحل بفضل السياسات الرشيدة التى تعرف أن محور عملها ومحصلة نشاطها هو توفير الحاجات الشعبية ورفع مستوى معيشتها وتعويضها عن سنوات الحرمان الطويل التى عاشتها فى رضى من أجل الأهداف الوطنية والقومية الكبرى .

وسوف تتأكد أهمية ودور هذه الشركات عند ما يكتمل بناؤها وتنتشر فروعها ويتسع إنتاجها ونشاطها ليغطى كل أنحاء البلاد أو كما يقول الرئيس السادات :

« العملية دى حتعرفوا قيمتها يا أولادى بعدين .. بس عايز وقت علشان الجهاز

يكتمل .. لأن مفيش حاجه بتتم فى يوم وليلة » .

المـدن الجـديـده :

إقامه المدن الجديدة فى مصر تستند إلى فلسفه ذات هدف مزدوج :

فهى تعمل على زيادة الإنتاج الزراعى من ناحية .

وتعمل على حل مشكلة الإسكان من ناحية أخرى .

ولعل هاتين المشكلتين الإنتاج والإسكان يمثلان أكبر وأخطر المشكلات الوطنية المعاصرة وإذا أمكن لسياسة ما أن تقتحمها معا فهى بالتأكيد سياسة تتسم بنظرة علمية شاملة تغوص إلى عمق الواقع الوطنى ليصل مدى تأثيرها إلى كل مواطن فى محور معاناته اليومية لتخفف منها وتوجد الحلول لها .

ويعبر الرئيس السادات عن أهميه هذه السياسة فيقول :

« إنها نقطة تحول فى تاريخ مصر .. لأن الأرض الجديدة والإنتاج الجديد الذى يبلغ ضعف إنتاج الأرض القديمة هى معركة التحدى .. فأنا لا أقتحم بها ـ بالمدن الجديدة ـ مشكلة إنتاج الطعام فقط ولكننى أقتحم بها مشكلة الإسكان أيضا .. » .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن كيف تقام هذه المدن ؟ وكيف تساهم فى حل مشكلة الإنتاج والإسكان ؟ .

والإجابة على هذه التساؤلات تجئ على لسان الرئيس السادات عندما يقول :

« هناك يا أولادى أخطر مشروع بدأ فى حياة مصر وفى تاريخها وهو زراعه ٥٠ ألف فدان جديدة منذ بداية عام ١٩٨١ وحتى ديسمبر ١٩٨١ .

خمسون الف فدان جديدة ... بتكنولوجيا جديدة وميكنه كاملة ومع كل ٥٠ ألف فدان مدينة اسمها مدينة أساس تتسع لخمسين ألف عائلة إذا حسبنا كل عائلة أربعه أفراد فإن المدينة تتسع لعدد ٢٠٠ ألف مواطن .. ذلك كله أعتبره يا أولادى هو التحدى الذى لا بد أن نواجهه ... لماذا ؟ لأن ذلك معناه أننى أضيف إنتاج ٥٠ ألف فدان جديدة بالتكنولوجيا الحديثة سيكون إنتاجهم مساويا لعدد ٢٠٠ ألف فدان من أرض الوادى القديم عندنا .

ولقد أخضعنا كل ذلك للتجارب ... ونحن لا نقوله من منطلق نظرى وإنما أمضينا حتى الآن ثلاثة أعوام فى التجربة ... وقد شاهدتمونى فى الصالحية أخيرا .. والنتائج أمامنا .. أمام أعيننا .. ظهر الإنتاج من الأرض ... إنتاج الأرض الجديدة أفضل من الأرض القديمة بنصف كمية المياه ... ونصف التكاليف أيضا ... » .

ويضيف الرئيس السادات عن أهمية هذا المشروع قوله :

« ثم إن الأرض الجديدة ليست للزراعة فحسب وإنما للزراعة وتربية المواشى ومصانع الألبان ... فى كل مدينة أساس زراعة وصناعة .. فيها تجفيف بعض المحاصيل .. وتغليف وتصدير لحوم ... وألبان ... والألبان تعنى جبنا وزبدا ولبنا بسعر عادى جدا .. » .

وعند هذا الحد يمكن القول أن اشباع الحاجات الجماهيرية من السلع التموينية بالقدر الكافى وبالسعر المناسب قد أخذت طريقها إلى التنفيذ أى أن عصر الرخاء قد بدأ بالفعل ..

فإلى جانب الانفتاح الاقتصادى الذى يمكننا من التعامل مع كل دول العالم بغير تمييز لنستورد منها أفضل منتجاتها لخدمة المواطن فإننا نأخذ منها أيضا أرقى ما عندها من العلم والتكنولوجيا لزيادة الإنتاج المحلى .

إلى جانب ذلك تقام المشروعات الإنتاجيه الكبرى لتساهم فى سد الاحتياجات الوطنية ولتضيق من دائرة الاستيراد وتوفر من حجم العملات الصعبة لاستخدامها فى مشروعات الاستثمار .

وإلى جانب ذلك يتقرر ربط الأجور بمستوى الأسعار السائدة تحوطا لما يمكن أن يطرأ على الأسعار الدولية من ارتفاع بحيث لا يؤثر ذلك على مستوى معيشة المواطنين .

وهكذا يتضح كيف أن الوضع الاقتصادى القائم قد شق الطريق واسعا وممهدا لحياة جديدة ينعم فيها الإنسان المصرى بالرخاء الذى يأمل فيه .

كما يتضح ذلك الفارق الشاسع بين مرارة وقساوة الواقع الاقتصادى فى بدايات السبعينيات عندما وصل إلى ما تحت الصفر وبين الواقع الاقتصادى الحالى الذى

يحقق الطموحات الاستهلاكية والمعيشية لهذا الشعب ويحقق التراكم النقدى اللازم للاستثمار لصنع المستقبل .

وإن كان لزاما فى نهاية هذا الفصل أن نؤكد أن تلك فقط مجرد ملامح حول أبعاد الوضع الاقتصادى فى بعض نواحيه . لأن الخطة الاقتصادية والاجتماعية لمصر أمر متكامل فى كل نواحى الحياة يمتد ليشمل كل جوانب حياة المواطن المصرى فى حاضره ومستقبله وتوجد فيها الإجابه الواضحة عن كل تساؤل يعين لمن يريد أن يستزيد فى البحث والاستقصاء فى هذا الخصوص .

الفصل الثانى

الأوضــاع السياسيــة

إن شعبا عملاقا كشعب مصر استطاع عبر تاريخه الممتد إلى فجر الإنسانية الأول أن يرد الطامعين والغزاة وأن ينتصر على جحافل الظلم والطغاة وأن يصمد أمام المحن وظروف الزمن - وأن يقف شامخا مرفوع الهامة رغم ضربات العدو والصديق .. لهو شعب خليق بالحياة .. جدير بالخلود .

إن شعبا عملاقا كشعب مصر شارك بالعلم والفكر فى صنع الميراث الحضارى للإنسان فى كل مكان - وأنار سبل التقدم والتطور أمام شعوب الأرض فى عصر مضى عم فيه الظلام وانهارت فيه إنسانية الإنسان لقادر على أن يعيد بناء نفسه ويصنع حاضره ومستقبله ويبنى رخاءه وتقدمه .

وإذا كانت السنوات الأخيرة قد شهدت معجزات اقتصادية انتقل بها شعبنا البطل من حاجته إلى رغيف العيش إلى تشييده لأضخم المصانع واستزراعه لأوسع المزارع .. فإن هذه المرحلة قد شهدت وبالتوازى معجزات سياسية عملاقة لفظت تلك الوسائل التقليدية التى تعارف الناس عليها وأقامت ممارسات العمل السياسى الجديد على أسس ومبادئ أخلاقية لا تعرف إلا المصلحة الوطنية وحدها .

وإذا كانت الدعامة الرئيسية التى يقوم عليها العمل السياسى فى مصر وينطلق منها هى الديمقراطية .

وإذا كانت الوسيلة الصحيحة لممارسة الديمقراطية الصحيحة هى الحياة الحزبية - رغم ما يكتنفها من صعاب أو مشاكل - فقد أرسى النظام الوطنى القائم بقيادة الرئيس السادات دعائم الحياة الديمقراطية والحزبية فى مصر بعد طول غياب .

ونظرا لحداثة التجربة .. فلا يزال الرئيس القائد يشرح مفهومها ويؤكد على كيفية ممارستها وينبه إلى أخطائها بغية الوصول إلى الفهم الصحيح والممارسة السليمة للعمل السياسى .

ولعله من المفيد هنا أن نشير إلى المبادئ التى يصر الرئيس السادات فى كل مناسبة على أن تكون منطلقا لعملنا السياسى فى مصر ..

يقول الرئيس السادات مشيرا إلى هذه المبادئ :

«كما قلت لكم .. وكما أريدكم أن تشبوا عليه يا اولادى كلكم .. المسئولية لا تتجزأ أبدا .. وهناك بالنسبة لى أمر أعتبره سقوطا لأنه يتنافى مع القيم . القيم بتاعة القرية التى قلت لكم عليها والتى حفظت على مصر وحدتها وشخصيتها وأصالتها عبر آلاف السنين منذ الحكم الأجنبى .. يكون من السقوط أمامى أن يجئ الإنسان فى موقع ثم يطعن من سبقه فى هذا الموقع لالشىء إلا لأنه يريد أن يرتفع على أكتافه هذا ما أعتبره هو السقوط .. وأنا أقول أيضا الأخلاق لا تتجزأ .. » .

والمستفاد من هذه العبارة أن الاضطلاع بالمسئولية لا بد وأن يقوم على قيم وطنية أخلاقية .

فما هى طبيعة هذه القيم التى يتعين الالتزام بها ؟

١ ـ أن تكون هذه القيم والمبادئ مستمدة من التراث الوطنى غير وافدة أو مستوردة وإنما محصلة طبيعية لمجموع النشاطات الإنسانية على امتداد هذه الأرض .

ذلك أن الانبهار بمجموعة من القيم أو المبادئ الغريبة على المجتمع ومحاولة زرعها قسرا وسط مكوناته تجعلها كنبت شيطانى لا يقوى على الصمود أو المقاومة ولا يقدر على النماء أو العطاء .

ومؤدى ذلك أن الضوابط التى تحكم المجتمع يتعين أن تقوم على فكر وطنى خالص أفرزته الطبيعة الثقافية والاجتماعية التى تضرب بجذورها فى أعماق الأرض والتاريخ .

٢ ـ أن تكون هذه القيم والمبادئ قد أثبتت سلامتها وصحتها على أرض التطبيق العملى وفى مجال الواقع الفعلى لإدارة حركة المجتمع .

ويتأكد هذا المعنى عندما تكون الإرادة الشعبية قد ارتضتها كمنهاج لحركتها عن قناعة ، وعيا منها بأنها تعبير صادق عن مكوناتها الفكرية والاجتماعية والأخلاقية . وأنها الضابط الوطنى الصحيح لتفاعلات ونشاطات المجتمع .

كما يتأكد هذا المعنى كذلك عندما تصمد هذه القيم والمبادئ فى لحظات الخطر وساعات التحدى وتلتف حولها الجماهير مؤمنة بأنها الجسر الممتد الذى يمكنها أن تعبر عليه إلى واقع أفضل .

وهكذا فإن الممارسة السياسية إذا ما ألتزمت جانب هذه القيم فإنها تلتزم بمصر وشعب مصر .

ثم تعالوا لنتعرف على رؤية الرئيس السادات للواقع السياسى الحالى وما ينبغى أن يكون عليه .

يقول الرئيس السادات :

« إننى ابتداء من ثورة مايو ١٩٧١ وأنا أتجه إلى الديمقراطية الحقيقية لا إلى شعار أرفعه فقط أو أعلقه .. لا .. حقيقة .. لماذا ؟
لقناعتى يا أولادى أن الديكتاتورية هى أشر ما يمكن أن يصاب به شعب » .

ويعلق الرئيس السادات بعد هذه العبارة بقوله :

« وإنما كنت مؤمنا بالديكتاتورية منذ أن بدأ إدراكى ووعيى .. فأيامنا كان هتلر ومصطفى كمال أتاتورك .. ثم من ذا الذى يزيح الإنجليز من بلادنا ؟ ومن ذا الذى يرفع عن كاهلها الحكام والفساد الحزبى .. ؟ ثم كيف نعوض ما فاتنا من وقت .. لم يكن هناك غير الدكتاتورية لكى نختصر الوقت .. » .

وقبل أن نستطرد مع مقولات الرئيس وتصوراته يتحتم أن ننبه إلى أمر هام وهو لماذا كان يؤمن الرئيس بالدكتاتورية ؟ وما هو نوع الدكتاتورية التى كان يؤمن بها فى ذلك الوقت ؟

مفهوم الرئيس للدكتاتورية :

إن الرئيس القائد لم يكن يؤمن بالدكتاتورية بمفهوم حكم الفرد المطلق وكبت الحريات والتسلط على مقدرات المجتمع والتحكم فى مصير الشعب لتحقيق مصالح

قوية أو طائفية عليا .. وإنما كان يؤمن بها بوصفها سياسة لتجميع طاقات الأمة وقواها السياسية صوب هدف واحد مشترك وصيانتها من التفتت والبعثرة فى متاهات الاجتهادات الشخصية والصراعات الفكرية حتى يصبح بمقدورها أن تواجه تحدياتها الكبرى فى الداخل والخارج .

ومن المؤكد أن الوحدة الوطنية فى ساعات الخطر وأمام قضايا المصير تعد ضرورة حياة لا يمكن لشعب بغيرها أن ينتصر على مشكلاته .

وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عندما قامت واجهت تحديات رهيبة تمثلت داخليا فى الملك وأعوانه من القيادات الحزبية القائمة بما تشيعه من فساد فى مناحى الحياة المختلفة اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا - وتمثلت خارجيًا فى قوى الاستعمار البريطانى الذى فرض وصايته وسلطته على مصر أكثر من سبعين عاما استنزف فيها كل مقومات تقدمها أو تطورها .

وأمام هذه التحديات الجسام لم تكن الحياة السياسية فى ظل الثورة تقبل بأن تتسرب جهودها فى متاهات ودروب فرعية باسم الديمقراطية .. خاصة وأن مفهوم الديمقراطية وقتها كان يعنى التشكيك والبلبلة والإثارة والصراع بين الأحزاب القائمة بهدف الوصول إلى السلطة .. والسلطة وحدها ولا شىء بعد ذلك .

إذن فالديكتاتورية التى كان يؤمن بها الرئيس لا تدخل فى إطار الفهم السياسى المعروف عنها وإنما هى تعنى تركيز السلطة وتعبئتها فى بوتقة وطنية تلتف حولها كل القوى السياسية وتؤيدها لتحقيق الأهداف الوطنية العليا والتى لا تدخل فى مجال الرأى والاجتهاد وصولا إلى جمع شمل الأمة كلها لتحقيق النصر الحاسم والسريع فى هذه القضايا .

وفى توضيح هذا المعنى يقول الرئيس السادات :

«عدت من الهند مبهورًا .. شعب به أكثر من عشرين ديانة وأكثر من عشرين جنسًا .. تصوروا يا أولادى شعبًا هذا تكوينه لغات .. أديان أجناس .. أشكال .. ومع ذلك استطاع نهرو أن يصنع منه شعبًا واحدًا يأتى فيه الشيوعيون ليقبلوا نهرو كأب لهم ولكنهم عندما يدخلون البرلمان يهاجمونه فى ممارسة سليمة للسياسة

والمعارضة .. لهذا طلبت .. أن نترك السلطة لجمال عبد الناصر ونبقى إلى جواره لنساعده فى أى شىء يطلبه ..

إن القيم شىء والسلطة شىء آخر .. فالسلطة تدير الرؤوس هذا بالضبط نوع من الديكتاتورية التى كنت أريد أن نعطيه لعبد الناصر . إننى أرى بعد نموذج توحيد الهند برغم خلافاتها أن المصلحة أن نترك السلطة لعبد الناصر ونبذ الصراع .. ثم نبقى نحن إلى جواره نقدم له المساعدة وندع له المسئولية مادام قد انتخب .. هذه هى وجهة نظرى فى الديكتاتورية ..» .

ومن الواضح من مقولة الرئيس أنه لم يكن يعنى ديكتاتورية العهد والتسلط وفرض القرارات من أعلى ضد إرادة الجماهير وإنما كان يعنى بها الترفع عن الصراع من أجل السلطة وتوحيد القوى الشعبية والإمكانات الرسمية من أجل الأهداف المشتركة .

ومن خلال الممارسة والتجربة يعود الرئيس ليؤكد على نبذة لفكرة الديكتاتورية تحت أى فهم أو أى مدلول فيقول :

«بقيت مؤمنًا بهذه الدكتاتورية إلى أن قامت لجنة تصفية الإقطاع .. ومنذ هذا التاريخ وأنا أقول يا أولادى .. إن أخطأ جيل بكامله من الديمقراطية لا تعادل ساعة واحدة من الديكتاتورية . وهذا ما أكدته عندى الممارسات السيئة التى أذت نفوس البشر .. فقد اتضح أن هذه اللجان أساءت كثيرًا إلى الناس بتصرفاتها .. ومن هنا تغيرت يا أولادى نظرتى للديكتاتورية نهائيًا .. وبالممارسة وليس بالنظريات ..» .

ويقول الرئيس :

«كان إيمانى شخصيًا بأن الحل الوحيد والأسلم أمامنا هو الديمقراطية وتعدد الأحزاب .. » .

فما هى الديمقراطية ؟ وما هو المقصود بتعدد الأحزاب ؟؟

الديمقـــراطيـــة :

الديمقراطية هى وسيلة تحقيق المشاركة السياسية من جانب المواطنين فى صنع

القرار السياسي وتقرير شكل النظم والإجراءات والممارسات المختلفة فى الحياة السياسية للمجتمع ، والديمقراطية بهذا المعنى هى انعكاس لإرادة الإنسان وإبراز لقدراته على تنظيم وضبط الحياة من حوله باعتبار أن الديمقراطية هى أسلوب للحياة والعمل ومنطلق للتفكير ، ومن ثم يجب أن تمارس على جميع المستويات وفى سائر مجالات المجتمع بوصفها واقع وممارسة وتطبيق يومى .

ومن المؤكد أن قضية الديمقراطية ليست قضية مطلقة ذلك أنها قضية نسبية من حيث المكان ومن حيث الزمان ويجب أن تفهم من خلال تحليل وفهم الظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية التى تواجه كل نظام وكل مجتمع .

فشكل الديمقراطية وأسلوب ممارستها فى مجتمع قد يختلف عنه فى مجتمع آخر كما أنها قد تختلف فى مرحلة تاريخية عنها فى مرحلة أخرى .

ومن هنا فإن شكل الديمقراطية المزعومة فيما قبل الثورة لا يمكن أن يكون هو بذاته نوع من الممارسات الديمقراطية التى تستهدفها بعد هذا الكفاح الطويل من عمر الثورة وبعد ما حققته من إنجازات وبعد تصحيح مسارها بثورة مايو ١٩٧١ وبعد انتصارات أكتوبر عام ١٩٧٣ وبعد مبادرة السلام عام ١٩٧٧م .

ذلك أن معظم التنظيمات الحزبية التى قامت قبل الثورة خصوصًا تلك التى مارست الحكم معها كانت تعمل لصالح طبقة وكانت كلها تستند على تحالف الإقطاع ورأس المال المستغل ومن ثم فإن هذه الأحزاب التى ادعت الديمقراطية لم تكن قائمة على أساس جماهيرى حقيقى وإن كان بعضها قد استطاع فى سنوات النضال من أجل الاستقلال أن يحرك جموعًا من المواطنين غير أنه لم يستطع أن يواصل النضال إلى نهايته لارتباط مصالحه بطريق غير مباشر مع مصالح القوى الاستعمارية ومن ثم انتهى إلى مهادنتها .

ومن ناحية أخرى فإن هذه الأحزاب عندما اكتشفت أن حركة النضال الوطنى قد اتسعت لإحداث تغيير اجتماعى حقيقى فى محتوى حياتها انقلبت هذه الأحزاب على قواعدها الجماهيرية وحاولت بكل الوسائل صرف أنظارهما عن مطالبها الاجتماعية .

وعلى ذلك بات واضحًا أن هذه الإطارات الحزبية التقليدية لممارسة الديمقراطية لم تعد قادرة على قيادة النضال الوطنى أو التعبير عنه أو الوصول إلى أهدافه فى التحرر الوطنى والاجتماعى .

ومن هنا فإن قرار قيام الحياة الحزبية فى مصر لتعبر عن مختلف القيادات والاتجاهات السياسية الوطنية إعمالاً للديمقراطية لا يمكن أن يكون عودة للنظام الحزبى السابق على قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وذلك لاعتبارين :

أولهما : أن قرار قيام الأحزاب فى مصر لتحقيق الديمقراطية لم يقم على فراغ وإنما قام على أسس ومبادئ جديدة وجاء نتيجة لمقومات موضوعية تؤدى إليه وتتجه معه أهمها :

١ ـ إسقاط مراكز القوى بما تمثله من مركزية السلطة وفرض الوصاية وبث الرعب بالنسبة لأى رأى معارض .

٢ ـ إلغاء المعتقلات نهائيًا بحيث لا يجوز احتجاز أى مواطن بغير أمر قضائى يستند إلى سيادة القانون على جميع المواطنين حاكمين ومحكومين .

٣ ـ وضع الدستور الدائم الذى يحدد حقوق وواجبات المواطنين وعلاقاتهم بالسلطات الحاكمة بحيث يحقق الأمن والأمان لكل مواطن .

٤ ـ تحقيق شعار الديمقراطية قولاً وعملاً من خلال بناء المؤسسات الشعبية والمجالس المحلية المنتخبة لحث الجماهير على المشاركة الوطنية فى صنع القرار السياسى .

٥ ـ نقل السلطات المركزية إلى وحدات الحكم المحلى لكى تعبر عن واقعها تخطيطًا وتنفيذًا فى ظل الرقابة الشعبية المحلية .

ثانيهما : قيام الممارسة الديمقراطية على ضوابط وطنية لا يجوز الخروج عليها أو الانفلات منها تحقيقًا للمصلحة الوطنية العليا وأهمها :

١ ـ الاشتراكية الديمقراطية التى تضرب بجذورها فى عمق التراب الوطنى وتستمد مقوماتها الفكرية والسياسية من تراثنا الحضارى ولا تتصادم مع قيمنا الروحية والخلقية .

٢ ـ السلام الاجتماعى الذى يقوم على الحب والتكافل والتوحيد وينبذ التنافر

والصراع بين فئات وقوى الشعب ويرفض كل الفلسفات التى تقوم على الحقد أو الصراع الدموى الذى لم يعرفه شعبنا ولا يمكن أن يعيش على أرضنا .

٣ ـ الوحدة الوطنية التى تجسد قوة المجتمع فى مواجهة تحدياته الداخلية والخارجية وترفض الفلسفات الفئوية أو الطائفية أو الدينية فى العمل السياسى وإنما تعلى المصلحة الوطنية الشاملة بغير تفرقة أو تمييز بين أبناء المجتمع .

وهكذا يتبين فى وضوح أن الديمقراطية الحزبية القائمة حالياً عديمة الصلة بحزبية ما قبل الثورة .. وإنما هى أسلوب متطور لشرح وجهات النظر المختلفة من أجل مصر .. وشعب مصر ..

ولكن ماذا حدث لتجربة الديمقراطية الحزبية الوليدة فى مصر؟؟

يقول الرئيس السادات فى عبارة موجزة فى تصوير حال الأحزاب القائمة فى مصر :

«لكننى للأسف فوجئت بأنها .. امتداد لعملية أحزاب ما قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فسواء فى جريدة الحزب .. حزب العمل .. أو فى أعضاء الحزب .. الحديث الوحيد عندهم هو الإساءة للحكم وللوزارة .. مفيش غير كده .. الله المعارضة مش كده .. » .

وفى تحليل وشرح هذه العبارات تعالوا نتوقف قليلاً أمام مفهوم المعارضة الحزبية فى إطار الممارسة الديمقراطية .

المعـارضـة الحـزبيـة :

فى إطار الفلسفة الجديدة التى يقوم عليها العمل الحزبى فى مصر فإن جميع الأحزاب سواء الحاكمة أو المعارضة يتعين عليها أن تلتزم جانب الصدق والموضوعية فيما تبديه من آراء وأن تتوخى المصلحة الوطنية العليا فيما تقدمه من اجتهادات .

ذلك أن للحقيقة عدة أوجه ويمكن للحزب الحاكم أن يراها من زاوية وتراها أحزاب المعارضة من زاوية أخرى وعندما تتكامل الصورة من زوايا الرؤية المتعددة تبرز الحقيقة الكاملة وهى الهدف النهائى الذى تسعى السلطة الحاكمة للوصول إليه .

ومن هنا فإن رأى المعارضة بهذا الفهم لا يعد حقًا لها بقدر ما هو واجب عليها ..

وأراؤها واجتهاداتها .. بهذا الفهم أيضًا ـ يعد ضرورة حيوية يسعى إليها الحزب الحاكم والنظام القائم ويبحث عنها .

والدليل على ذلك بسيط وسهل ، ذلك أنه لا يمكن لنظام سياسى أن ينشئ بإرادته واختياره اتجاهات معارضة له مالم يكن هذا النظام قويًا وثابتًا ومستقرًا ولا ينظر إلا إلى المصلحة الوطنية من أى مصدر ومن أى اتجاه ومن خلال أى قوة أو تيار سياسى وطنى قائم . ذلك أنه بهذه الصورة لا يسعى إلى السلطة لمجرد السلطة وإنما يتحملها كمسئولية وطنية تشارك فيها كل القوى الوطنية الشريفة ، هذا من الناحية النظرية والمنطقية ومن الناحية العملية ها هو الرئيس السادات يقول :

«المعارضة عليها واجبات ولها حقوق .. من حقوق المعارضة أننى كحزب أغلبية فى الحكم لا بد فى الأمور الأساسية للدولة أن اجتمع بيهم أى فى المسائل القومية نجتمع ونتفق عليها .. » .

ومن الناحية العملية أيضًا فإن النظام السياسى القائم هو الذى حرص على ضرورة إنشاء المعارضة الوطنية القوية وفى ذلك يقول الرئيس السادات :

«كان هناك شرط العشرين نائب ـ لقيام أى حزب ـ طلبت من النواب من عندنا أن يوقعوا لإبراهيم شكرى ماحدش رضى رحت واخد نواب الحزب الوطنى كله ووقعت لإبراهيم شكرى .. كانت العملية عملية تاريخية .. ولم نقم بها سرًا .. وإنما أخذت كل النواب بتوع الحزب الوطنى حوالى ٣٣٠ ورحت مضيت لحزب العمل علشان يقوم .. فتصبح لدينا المعارضة ويصبح هناك تعدد الأحزاب » .

إذن فالنظام السياسى القائم وحزب الأغلبية الحاكم هو الذى يصر على قيام المعارضة انطلاقًا من فهم وطنى واضح بأن أساليب أحزاب المعارضة القديمة قد سقطت نهائيًا ولم يبق سوى التفاعل والتعاون المشترك من داخل السلطة وخارجها لتحقيق الأهداف الوطنية من خلال تعدد الآراء والاجتهادات الجماعية العامة التى

تعبر عن جموع الجماهير العريضة صاحبة المصلحة الحقيقية فى ترقى وتصاعد معدلات البناء الاجتماعى .

ولكن ماذا حدث لأحزاب المعارضة :

لم تستوعب هذه الأحزاب المحتوى الجديد للتجربة الحزبية وانتهجوا أساليب أحزاب ما قبل الثورة ولجأوا إلى التشكيك والإساءة للحكم والحكومة . وهاجموا معظم المشروعات القومية التى يقوم بها حزب الأغلبية .

وفى ذلك يقول الرئيس السادات :

«قلنا النفق .. فإذا بهم بكل بساطة فى جريدتهم يقولون إن تكاليف النفق باهظة ولم يكن له داع ..

النفق الذى يربط مصر بسيناء بعد أن ضاعت منا سيناء وبعد ما أهملناها عبر التاريخ .. وكانت منطقة عسكرية بلا حكم محلى .. وأصبح الدخول إلى سيناء أو الخروج منها يحتاج إلى تصاريح أمنية لا حصر لها ..

ألا توافقونى على أن النفق كان حتمًا أن يتم لربط سيناء ولو تكلف مليارًا من الجنيهات ومع ضخامة الهدف الذى حققه النفق .. فإذا بالمعارضة بكل بساطة تهاجمه وتصفه بأنه إسراف لم يكن له داع ..» .

ويستطرد الرئيس السادات ليوضح مواقف أحزاب المعارضة من المشروعات القومية فيبين موقفهم من مشروع منخفض القطارة الذى يعبر عن رؤية مستقبلية لمصر فيقول :

«بدأنا دراسات هذا المشروع الكبير مع الألمان الذين درسوه لمدة عشرة أعوام لكننا رفضنا عرضهم لأنهم اقترحوا استخدام الطاقة النووية والذرية النظيفة فى الحفر .. وهو أسلوب لم يجربه العالم بعد بالإضافة إلى توافر الأيدى العاملة عندنا ..

وبعد ذلك بدأنا نستعين بالسويد وهم أصحاب أعلى المستويات العلمية فى العالم .. ولديها خبرة واسعة .. وإذا بنا نفاجأ بأحد المحامين يخرج فى جريدة الشعب ليحل المشكلة ويقول إنه لا داعى لمشروع القطارة بالمرة ولو أنه كان مهندسًا لكان

الأمر مقبولاً أما غير المقبول فهو أنه محام وينهى المشروع بكلمة واحدة إنه لا لزوم له .. فهل هذه هى المعارضة ؟؟» .

ويجيب الرئيس ذاته على التساؤل بقوله :

«إنه ليست لدينا معارضة .. اللى موجود عندنا القصور الذاتى اللى ماشى من وقت الأحزاب .. إن المعارضة تعنى الإساءة إلى الوزراء والتشنيع على الحكم والخروج على كل القيم حتى يسقط الحكم وتقفز المعارضة إلى الحكم ما حدش قادر يفهم أن الكلام ده خلص من أيام ما خلصنا من الملك .. الديمقراطيات الغربية التى نريد أن نبنى مثلها تبحث عن رخاء الفرد .. مشكلتهم هى رخاء الفرد والأسرة .. » .

ولعله يبقى الآن فى هذا الموضوع كلمة أخيرة أو تساؤل أخير :

ماهو الحل ؟؟

قد يتصور البعض أنه طالما فشلت أحزاب المعارضة أو بعضها فى فهم الأسلوب الصحيح للمارسة السياسية فى هذه المرحلة فإن النظام القائم سوف يعمل على حلها كلها .. أو بعضها ..

ولكن ذلك تصور ساذج ..

لأن النظام الذى يقوم على الديمقراطية ويرسى دعائمها ويعمل على إقامة مؤسساتها وينشئ بذاته أحزاب معارضة لا يستدير فيضرب منجزاته ويتنكر لقيمه ومبادئه والأسس التى يقوم عليها وإنما الأقرب إلى التصور الموضوعى أن يصحح النظام ما تقع فيه أحزاب المعارضة من خطأ ويصر على تقويم ممارستها السياسية بوسائل نظرية وتطبيقية ترسخ فى مفاهيم القائمين عليها طبيعة الأحزاب الجديدة وأساليبها وكيفية حركتها ومشاركتها فى صنع القرار السياسى العام .

ولقد حسم الرئيس السادات هذا الموقف نهائيًا قطعًا لكل عوامل البلبلة والتشكيك بقوله :

«لقد كانوا يتصورون أننى سوف أقوم بإلغاء حزب العمل .. طيب ما أنا ما أملكش ألغى حزب ـ وعلى فكرة ـ إلا إذا كنا سنعود للديكتاتورية .. فأنا

لا أستطيع أن ألغى حزبًا .. وإنما الذى يملك ذلك هو الشعب ..

كيف ؟

بإجراءات منصوص عليها فى القانون يتم بموجبها تقديمه للمحاكمة تتقدم الدولة للمحكمة وتقول إن الحزب الفلانى ارتكب أخطاء من التى نص عليها القانون وألا تبقى المسائل مش جدية أن تقيم اليوم حزبًا .. ثم نلغيه غدًا .. أنا أبدا .. » .

فى حسم لا يعرف التردد تفصح هذه المقولة عن أن :

الديمقراطية قائمة ومستمرة .. ومشاركة الجماهير الشعبية فى صنع القرار السياسى من خلال القنوات التنظيمية الحزبية مطلوب ومرغوب فيها ..

والقول الفصل فى النهاية بصدد أى حزب مرجعه إلى الشعب .. وهكذا بالديمقراطية نصحح أخطأ الديمقراطية .

وقد يتساءل البعض أيضًا من جديد : كيف : وما هو دور الحزب الحاكم فى ذلك ؟

لتصحيح الديمقراطية بالديمقراطية أيضًا يقوم حزب الأغلبية الحاكم الحزب الوطنى الديمقراطى .. بإعداد بحوث مستفيضة عن كيفية الممارسة الديمقراطية الحزبية السليمة فى إطار الأحزاب القائمة مستفيدًا فى ذلك بتجارب الدول المتقدمة ليعرضها على المؤسسات الدستورية والشعبية ليتخير من بينها ما هو صالح للتطبيق فى هذه المرحلة .. وفى ذلك يقول الرئيس السادات :

«قد تم عمل بحثين أحدهما عن قيام المعارضة فى انجلترا والثانى عن قيام المعارضة وتاريخ الديمقراطية فى أمريكا وسيصلكم هذان البحثان وسيصلان إلى أعضاء مجلس الشعب وإلى الحزب كله .. وسنجلس لنناقش من منطلق تاريخ الديمقراطية والممارسة والمعارضة ما هو أنسب الأساليب لنا ونتبعه .. وأنا أميل للديمقراطية متعددة الأحزاب بحزبين كبيرين وبقية الأحزاب صغيرة وعندئذ يوجد الاستقرار كما فى أمريكا وانجلترا ولكن المعارضة تبقى » .

وهكذا لا رجوع عن الديمقراطية .. التى تحقق مشاركة سياسية لأوسع القواعد

الجماهيرية والتى تضمن عدم تفتيت الوحدة الوطنية بشكل مصطنع يهدر طاقاتها ويبدد قواها .

وهكذا يفسح المناخ الديمقراطى صدرة لكل أخطاء الممارسة وبالأسلوب الديمقراطى ذاته يصححها ..

وهكذا يكون الوضع السياسى القائم مستندًا إلى أسس مبدئية تعمل وسط الجماهير ومن أجلها ..

الباب الرابع

علاقات مصر الخارجية

استخلصت مصر حقها فى إدارة شئونها الخارجية بعد انتهاء الحماية البريطانية عليها فى ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢م .

وكان من أهم مظاهر تمتع مصر بهذا الحق إعادة تكوين وزارة الخارجية المصرية والتى كان قد تم إلغاؤها عند إعلان الحماية عام ١٩١٤ .

ولقد نتج عن هذا الموقف الجديد أن أخذت مصر فى تأسيس تمثيل دبلوماسى لها خارج البلاد كانت بدايته مع بريطانيا ثم امتد بعد ذلك إلى سائر الدول الأجنبية .

إلا أنه على الرغم من ذلك فإن مصر لم تستطع أن تستقل تمامًا بإدارة سياستها الخارجية دونما تدخل من الجانب البريطانى . ويؤكد هذه الحقيقة تلك المذكرة التى بعثت بها انجلترا إلى كل الحكومات التى لها تمثيل دبلوماسى بالقاهرة ـ وقتئذ ـ تحذرها فيها من أن تمس علاقاتها بمصر أيا من التحفظات الواردة بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ولقد أطلق المسئولون الإنجليز على هذه المذكرة «مبدأ مونرو البريطانى فى مصر» وهذا المبدأ يعنى أنه بالرغم من إعلان الاستقلال المصرى فإن الجانب البريطانى قد فرض نوعًا من الوصاية على حق مصر فى إدارة سياستها الخارجية وهى وصاية مفروض أن تستمر طالما بقيت التحفظات التى تضمنها تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م .

وفى عام ١٩٣٦ عندما عقدت معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا سقطت تلك التحفظات وكان بديهيًا أن تدخل مصر مرحلة جديدة فى إدارتها لسياستها الخارجية غير أن هذه المعاهدة قد تضمنت نصًا فى مادتها الخامسة يقضى بأن يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بأن لا يتخذ فى علاقاته مع البلاد الأجنبية موقفًا يتعارض مع المعاهدة وأن لا يبرم معاهدات سياسية تتعارض مع أحكام المعاهدة الدولية .

وكانت هذه المادة بمثابة قيد جديد فرض به الجانب البريطانى وصايته على

إدارة مصر لسياستها الخارجية .

وهكذا ـ دون الدخول فى تفصيلات ـ فإن إدارة مصر لسياستها الخارجية طوال تلك الفترة وحتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لم تكن حرة تمامًا وإنما خضعت فى كثير من الأحيان للضغوط البريطانية . ومن ثم يصبح من العسير أن نتلمس مبادئ أساسية كانت تحكم وتوجه سياسة مصر الخارجية فى هذه الفترة .

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فقد تبلورت أمانىّ الشعب ومشاعره فى صورة أهداف محددة ومبادئ واضحة التزمتها حكومة الثورة فى علاقاتها الخارجية انطلاقًا من أن السياسة الخارجية هى فى خدمة السياسة الداخلية وأنه بدون سياسة خارجية واضحة ومحددة لا يمكن تحقيق البناء الداخلى .

ولقد كان المحور الرئيسى الذى تنطلق فيه سياسة مصر وعلاقاتها الخارجية منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ هو تحقيق السلام كمبدأ وقيمة وطنية وإنسانية .

وبعد ثورة التصحيح فى مايو ١٩٧١ لم تخرج مصر عن مبدأ السلام كنقطة انطلاق فى سياستها الخارجية غير أنها وقد مدت بصرها إلى كل أقطار الأرض وانفتحت عليها واستوعبت واقعها ومتغيراته راحت تبحث عن وسائل حضارية جديدة لتحقيق هذا المبدأ .

وكانت هذه الرؤية الحضارية قائمة على نظرة مستقبلية تتجاوز حدود الواقع والتعامل معه إلى موقف إيجابى يتبنى ضرورات المستقبل ومستلزماته . وهو ما سوف نشير إليه فيما يلى مع نماذج تطبيقية لهذه السياسة .

الفصل الأول

الرؤيـة المستقبليـة فى العلاقات الخـارجيـة

لقد أصبح من أهم سمات العصر الحالى تطلعاته إلى المستقبل.

ولقد بدأت هذه الظاهرة العلمية تسود معظم بلدان أوربا وأمريكا منذ الستينات من هذا القرن تحت مسميات مختلفة منها «المستقبلية» أو «علوم المستقبل» أو «الاستطلاعية» وغيرها.

وهذه العلوم تقوم على حسابات علمية دقيقة يقصد بها خدمة المجتمع وترشيد حركة تطوره داخليًا وخارجيًا.

أى أنها نوع من رصد المستقبل تمهيدًا لاتخاذ السياسات أو الإجراءات المناسبة وفقًا للتنبؤات المستخلصة من طبيعة حركة المجتمع ومدى مقوماته ومكوناته ووفقًا لطبيعة المتغيرات المحيطة به وعلى ضوء المصالح المستهدفة له.

أهمية الرؤية المستقبلية للأمة العربية فى العلاقات الخارجية :

إن الظروف الحالية القائمة فى العالم العربى والمحيطة به تفرض عليه ضرورة التسلح السريع والحكيم بمناهج علمية دقيقة لدراسة المستقبل وإعداد العدة له حتى يمكن اللحاق به والتطور معه دون معوقات تقف حجر عثرة أمام الوصول إليه أو تشكيله وفقًا للطموحات الشعبية وروح العصر.

وإذا كان الوعى بالمستقبل يعتبر ضرورة هامة لكل المجتمعات البشرية بغير استثناء فهو بالنسبة للبلدان العربية يعد قضية مصيرية وذلك لمجموعة من الأسباب فى مقدمتها :

أولاً : تزايد القوى الدولية ذات المصالح الحيوية فى منطقة الشرق الأوسط

وتخطيط كل منها للحصول على أكبر قدر ممكن من النفوذ أو المصلحة فى هذه المنطقة الحيوية من العالم .

وإذا ما أضيف إلى ذلك تلك المتغيرات الدولية السريعة التى أعادت توزيع الخريطة السياسية من قوتين كبيرتين منفردتين بالتنافس والاستقطاب الدولى إلى قوى دولية متعددة تقف على قمة السياسة الدولية وتشارك فى توجيه حركة الحوادث والتأثير فيها فإن رسم السياسة الخارجية للأمة العربية يقتضي ضرورة دراسة احتمال المستقبل الدولى وتطوراته .

ولكي يبدو مدى صدق هذه المقولة :

فلنتابع تحركات الاتحاد السوفيتي فى المنطقة ومحاولاته احتواء بعض الأنظمة العربية والسيطرة عليها بهدف التأثير على الدور العربى المنتظر منه مستقبلاً بحكم موقعه الجغرافى وإمكانياته البشرية والمادية وقوته الاقتصادية .

وعلى الجانب الأوربى يستطيع المراقب أن يلمس تنافسًا متصاعدًا بين الأطراف الرئيسية لأوربا الغربية خاصة فرنسا وانجلترا وألمانيا الغربية فى التقرب من العالم العربى والإفادة من إمكانياته الاقتصادية والبترولية .

وفى آسيا تضع اليابان مستقبل علاقاتها مع المنطقة العربية فى مقدمة اهتمامات المخططين وراسمو الإستراتيجية اليابانية وذلك من حيث الإفادة من إمكاناتها ومن حيث غزوها كأسواق لتصريف المنتجات اليابانية .

ثم دولة عظمى كالصين الشعبية تفتح عقلها وذراعيها للتعاون المثمر مع الأمة العربية دون استثمار لهذه الرغبة فى دراسة واتجاهات التطور الداخلى فيها أملاً فى التوصل إلى نتائج تفيد فى فهم مستقبل حركتها الخارجية مع المنطقة العربية .

ثانيًا : تعدد المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على أرضية العالم العربى بالقدر الذى يعرقل كل محاولات البناء والتقدم رغم توافر أسبابها وإمكانياتها ، ولا نبالغ إذا قلنا إن كثيرًا من البلدان العربية وخاصة البترولية مطالبة فى هذه المرحلة بالانتقال من فكريات القرن التاسع عشر إلى فكريات مطلع القرن الحادى والعشرين بما يمثله ذلك من قفزة هائلة تحتم فهم ودراسة المستقبل المأمول وكيفية

الوصول إليه عبر الواقع المحتدم بالمشاكل والتقاليد والقيم المتخلفة خاصة إذا ما فهم أن نوعية المجتمعات القائمة حاليًا فى معظم البلدان العربية تختلف عن طبيعة مجتمعات المستقبل ذى المؤسسات والأنظمة السياسية والإدارية والفنية المستقرة التى تقوم على مناهج علمية ومبادئ فكرية ثابتة.

ثالثًا : ضرورة تضييق فجوات التخلف بين الأمة العربية وغيرها ممن يحيط بها من الدول الآخذة بأسباب التقدم وفى مقدمتها وسائل ومناهج رصد المستقبل ومحاولة التحكم فيه وإلا اتسعت هذه الفجوات وزاد العالم العربى تخلفًا بالقياس إلى معدلات التقدم السريع فى هذه الدول.

ولعل أكبر مثال على ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية تضم العديد من المؤسسات المتخصصة فى رصد واستكشاف المستقبل بالنسبة للأوضاع الداخلية والتحركات السياسية الخارجية ومن بين هذه المؤسسات جمعية مستقبل العالم المتمركزة فى واشنطن حيث ينتظم فى عضويتها أكثر من ستة عشر ألف عضو من أكثر من ثمانين دولة وقد أصدرت هذه الجمعية أكثر من ألفين وخمسين مؤلفًا حتى عام ١٩٧٣ عن مستقبل كافة فروع العلم والمعرفة الإنسانية.

وإذا قيل إن الولايات المتحدة الأمريكية دولة عظمى فها هى إسرائيل بها جامعة يتخصص فيها قسم كامل للدراسات المستقبلية المتصلة بكافة فروع العلوم بما فيها تطور الأسلحة فى العالم، كما تضم العديد من الجمعيات والمراكز المتخصصة فى بحث أوضاع الشرق الأوسط المستقبلية ولعل من أهم ما صدر فى هذا المجال مؤلف الشرق الأوسط سنة ٢٠٠٠ الذى أخرجته الرابطة الإسرائيلية للعمل من أجل السلام فى عام ١٩٧١م.

رابعًا : ضرورة تدريب الجماهير العربية فكريًا وثقافيًا وتعليميًا وتنظيميًا على التعامل مع قيم وأدوات وأنظمة المستقبل.

ذلك أن الشعوب العربية حتى وإن لم تساهم فى صنع ذلك المستقبل إلا أنها مطالبة بأن تعيشه كما يصنعه غيرها فالمكتشفات العلمية والمخترعات الحديثة للمستقبل لا بد وأن تمس الإنسان العربى فى كيفية التعامل معها ومع ما تولده من أنظمة

وعلوم جديدة بل ومشكلات وأنظمة جديدة أيضًا ولعل شواهد هذا التقدم قد بدأ بالفعل فالمزارع البحرية والتحكم فى الطقس ووسائل الاتصال الدولى والاستخدام الواسع للطاقة الشمسية واستخدامات الكمبيوتر والدخول إلى عصر الفضاء كل ذلك يحتاج بالضرورة إلى تهيئة الأذهان وترتيب الأوضاع لحياة المستقبل.

خامسًا : حتمية النظر إلى عصر ما بعد البترول.. ذلك أن إمكانيات الأمة العربية فى معظمها مرده إلى الطاقة البترولية وعوائدها المادية ، فماذا بعد نفاد البترول من الأرض العربية ؟ وما هو مستقبل الشعوب العربية فى ظل الوقود النووى الذى بدأ العمل من أجل استخدامه فى نطاق واسع ؟ وما هو شكل وطبيعة العلاقات العربية الدولية بعد عصر البترول ؟

كلها تساؤلات ملحة ومصيرية ينبغى على البلدان العربية أن تكرس لها المؤسسات العلمية المتخصصة لدراسة احتمالاتها ووضع الخطط المستقبلية لمواجهتها.

هذا وعلى الرغم من أن دراسات المستقبل خاصة فى مجال العلاقات الخارجية تعد منهاجًا علميًّا يمثل الإضافة الحقيقية فى مجال العمل السياسى فى القرن العشرين بما يقدمه من تيسيرات لعمليات استطلاع الواقع الدولى القريب والبعيد فى عالم تزداد فيه أهمية الزمن كعامل من عوامل الاستقرار الفردى والجماعى وكعنصر من عناصر التقدير والتخطيط والتشريع.

على الرغم من ذلك فإن هناك بعض الآراء التى تقول إن دراسات المستقبل فى الدول النامية يعد ضربًا من الرفاهية الفكرية لأنه وإن كان يتناسب مع المجتمعات المتقدمة فهو لا يتناسب مع مجتمعات لا تزال فى مرحلة البحث عن حلول لمشكلاتها الحياتية اليومية.

غير أن ذلك مردود عليه بأن المجتمعات المتقدمة لم تبلغ مرحلة تقدمها إلا من خلال دراسة المستقبل والتخطيط له ثم تنفيذ هذه المخططات بأساليب ووسائل علمية وتنظيمية دقيقة ولعل معظم الدول الأوربية التى دمرت بعد الحرب قد استعادت مكانتها الاقتصادية والسياسية الدولية من خلال هذا التخطيط.

بل إن ونستون تشرشل قد شغل نفسه بدراسة وبحث مستقبل بريطانيا وإعادة

بنائها وقت كانت الحرب لا تزال مشتعلة فيها .

ومن ناحية أخرى فإن ما يقال عن المشكلات الحياتية اليومية للشعوب النامية لا تمنع من النظر إلى المستقبل ذلك أن المشكلات اليومية ليست قاصرة على الدول النامية بل إن الدول المتقدمة قد تعانى من مشكلات يومية أكثر حدة وأكثر تعقيدًا مثل البطالة والتضخم . ومن ثم فإن لكل مجتمع ولكل مرحلة زمنية مشاكلها الخاصة بها والمنطق الصحيح هو الذى يزاوج بين البحث عن حلول لهذه المشكلات ودراسة مشاكل المستقبل وكيفية الإعداد له والتعامل معه .

كان ما سبق كله استطرادة ضرورية لفهم المواقف المصرية فى إدارتها لعلاقاتها الخارجية سواء مع البلدان العربية أو الأجنبية بل لا نغالى إذا قلنا إن ذلك كان ضروريًّا لفهم المواقف المبدئية للسياسات المصرية فى الداخل والخارج وأساليبها الحضارية الجديدة التى لم يستطع البعض فهمها وهضمها واستيعابها حتى الآن .

فى مجال بناء الإنسان المصرى الجديد الذى يقول عنه الرئيس فى مطلع أحاديثه للشباب :

«إنه الإنسان الذى نواجه به كل شىء ويستطيع أن ينتصر على كل شىء .. لنهىء أنفسنا لكى نتحمل مسئولية البناء التى نحن ملزمين أن نبنى مصر بها » .

هى رؤية مستقبلية لطبيعة الإنسان ومكوناته الداخلية التى تستطيع أن تعيش المستقبل وللمستقبل .

الإنسان المصرى الذى لا ينفصل عن قيمه وتراثه ولا ينعزل عن تطورات الحياة بمعطياتها العلمية والفكرية والثقافية بحيث يكون قادرًا على التكيف مع ما يجىء به المستقبل الذى نبنيه .

وفى مجال الانفتاح الاقتصادى الذى يقول عنه الرئيس السادات :

«إنه المفتاح .. الذى كان علينا بواسطته أن نعبر الحواجز والسدود المحيطة ونحاول التغيير فى أسلوب تعاملنا .. بهدف إيه ؟ بهدف أن الشباب ما يطلعش يلاقى العملية سودة قدامه .. ويقدر يحقق ذاته .. » .

هى رؤية مستقبلية للواقع الاقتصادى فى مصر لطموحات الشباب المصرى واحتياجاته فى المستقبل .

الشباب المصرى الذى يتحتم أن يخرج من معاناة الواقع ليجد أفقًا فسيحًا يتسع له وللقادمين من بعده لكى تحيا ظروفًا متطورة ومتجددة يحقق كل منهم فيها ذاته ويثبت وجوده ويعيش حياته .

ثم حرب أكتوبر المنتصرة ـ كيف تحقق لشعبنا فيها النصر؟ إنه بغير جدل وباعتراف العالم كله بالتخطيط المحكم الدقيق وباستخدام أحدث وسائل العلم والتكنولوجيا المتطورة فى مجال العلوم العسكرية .

وهل كان ممكنًا أن يتحقق ذلك بغير دراسات طويلة مسبقة لطبيعة الصراع وكيفية إدارته ؟ أى دراسات لمستقبل الصراع وكيفية النصر فيه والأسلحة اللازم استخدامها على ساحة المعركة وطبيعة العلاقات العربية والدولية وردود أفعالها المتوقعة وقت الحرب .

ثم مبادرة السلام التاريخية أليست نظرة مستقبلية حضارية تدرك طبيعة الحياة الإنسانية فى تطورها الصاعد نحو السلام الشامل وصولاً إلى تحقيق حياة أفضل تسخر فيها امكانيات الحرب فى مواقع البناء والإنتاج .

أليست تخطيطًا حضاريًّا محكمًا لصنع مستقبل جديد ننسخ خيوطه اليوم على أرضنا من أجل شعبنا وشعوب الأمة العربية وكل الشعوب المحبة للأمن والأمان والرخاء .

ثم مواقف مصر من الشعوب العربية الشقيقة حيث لم تتخل عنها فى جهودها من أجل البناء والتقدم إذ تمدها بالخبراء فى كل مجال وتساعدها سياسيًّا وعسكريًّا فى كل معاركها العادلة ..

أليس ذلك رؤية مستقبلية تؤكد أن الحكومات والزعامات العربية الرافضة مصيرها إلى زوال وأن الشعوب العربية الواعية هى الباقية وأنها حتمًا بحكم التطور الطبيعى لمستواها الحضارى الشامل سوف تنضم إلى الشقيقة الكبرى مصر فى معركتها الحضارية والإنسانية من أجل السلام .

ثم أليست رؤية مستقبلية أن يقيم الرئيس السادات جامعة للشعوب الإسلامية والعربية باعتبار أن المستقبل للشعوب وليس لممثلى الأحزاب أو الحكومات وأن المستقبل المنظور سوف يشهد توحدًا فى الكلمة والحركة بين الشعوب الإسلامية والعربية بحكم اتحادها فى الدين ، وبحكم مصالحها المشتركة فى صنع المستقبل واختصار الزمن فى الوصول إليه .

إنها حقًا رؤية علمية وموضوعية وحضارية لصانعى السياسة المصرية تنبئ عن بصيرة نافذة تعيش الواقع وتعمل من أجل المستقبل .

الفصل الثانى

العلاقات الخارجية فى مجال التطبيق

إذا كانت العلاقات الخارجية ما هى إلا انعكاس لواقع العلاقات الاجتماعية الداخلية .

فإن مصر التى تمثل أعظم حضارة إنسانية شهدها التاريخ كانت تتمتع بنظم وعلاقات اجتماعية ثابتة ومستقرة عكست نفسها فى علاقات دولية تقوم على أسس ومبادئ ترعى مصالحها الداخلية من ناحية وتحقق التواصل بينها وبين جيرانها من ناحية أخرى .

ومن البديهى أن تكون أولى الدوائر التى تترجم فيها سياسات مصر الخارجية إلى واقع عملى هى الدائرة العربية .

وسوف نعرض للنماذج التى أشار إليها السيد الرئيس فى معرض لقائه بشباب مصر :

أولاً ـ السودان

الروابط بين مصر والسودان قديمة ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ذلك العصر السابق على اختراع الكتابة وتدوين الحوادث التاريخية ، وهو السابق على عام ٤٢٠٠ قبل الميلاد .

ولقد بلغ ما بين الشعبين من أواصر الوحدة أن كانت لهما آلهة واحدة وثقافة واحدة ، فضلاً عن النيل الواحد شريان الحياة فى البلدين .

هذا ولم يعرف تاريخ السودان إلا من النقوش الفرعونية التى وجدت على الآثار الفرعونية التى اكتشفت فى مصر والسودان ، كما أن تاريخ السودان فى كل العصور

كان متأثرًا إلى حد كبير بالحضارات التى ازدهرت فى مصر إلى حد ارتبط معه تاريخ السودان السياسى بالتاريخ المصرى .

ومنذ بدايات التاريخ وكثير من العرب المسلمين يهاجرون من مصر إلى السودان حيث اختلط المهاجرون بالسكان الأصليين وتزاوجوا وامتزجت الدماء بالنسب والمصاهرة .

وبعد فتح محمد على للسودان وتعيين ابنه اسماعيل حاكمًا عسكريًّا عليه أعيد التنظيم الإدارى والسياسى فى السودان بحيث كانت تدار شئونه من إدارة خاصة بمجلس النظار بالقاهرة .

وهكذا اختلط الإنسان المصرى بالسودانى وتعايشا معًا واستمر الحال على ذلك حتى فى ظل الحكم المصرى الإنجليزى للسودان منذ عام ١٨٩٨ وحتى حصول السودان على استقلاله عام ١٩٥٦م .

ولنعبر فوق حوادث التاريخ لنصل إلى ثورة مايو ١٩٦٩ التى قام بها الرئيس جعفر نميرى ونرى ماذا كان موقف مصر منها ؟

يقول الرئيس السادات :

«علاقاتنا بالسودان ظلت فى حياة عبد الناصر ماشية .. حصل فيه اجتماعات فى ليبيا بين عبد الناصر والنميرى والقذافى - ما أسفرتش عن شىء .. وجت سنة ١٩٧٠ توفى عبد الناصر .. وجينا تذكروا بدأنا نعمل عملية محادثات الوحدة بين مصر وليبيا وسوريا وبعد حافظ الأسد ما عمل حركته التصحيحية فى عام ١٩٧٠ .

وأيضًا هذه المرحلة مشيت .. وكان السودان باستمرار بيطلب أنه يكون الرابع لأنه كانت مصر وليبيا وسوريا والسودان ـ النميرى ـ بيطلب أن يكون الرابع حتى لما عملنا أحنا الوحدة فى أوائل عام ١٩٧١ النميرى كان بيشترط إنه لا بد إنه علشان تقوم الوحدة لا بد إنه يعد نفسه من الداخل .. وده من حقه فدخلنا إحنا وليبيا وسوريا فى عملية الجمهوريات العربية المتحدة .. وفضل السودان بره .. ولكن عمل علاقات بيننا وبينه .. لأنه إنتم عارفين دى علاقات رحم ودم .. » .

ولعل هذه المقولة تفصح عن أمرين نشير إليهما فيما يلى :

الأمر الأول :

حرص السودان على استمرار ودعم علاقاته بمصر باعتبارها الامتداد الطبيعى والاستراتيجى للسودان وبحكم الروابط التاريخية والسياسية بين الشعبين وباعتبار أن تطور السودان وتقدمه رهن بمدى إسهام الشعب المصرى فى توفير الأمن والأمان على أرضه وبمدى ما يقدمه معه من جهد فى مجالات البناء والتعمير.

والملاحظ هنا أن الروابط بين مصر والسودان لا تنبع من قرارات فوقية أو تجىء تعبيرًا عن إرادة السلطات الحاكمة وإنما تصدر عن إرادة شعبية تفرض مواقفها على صنع القرار السياسى.

ولعل أكبر تدليل على هذه الحقيقة ما أشار إليه الرئيس السادات أيضًا بقوله :

«ما انساش أبدًا يوم ما انعقد مؤتمر القمة العربى فى الخرطوم فى أغسطس ١٩٦٧ . بعد الهزيمة بشهرين وحضره الله يرحمه عبد الناصر وما انساش موقف الشعب السودانى فى هذا .. لأنه حتى تلاقوا طلعت إحدى المجلات العالمية وعليها صورة عبد الناصر والجموع التى طلعت تستقبله بخلاف جميع الملوك والرؤساء العرب اللى راحوا .. ما طلعش ١ على ١٠٠ من اللى طلع لعبد الناصر فاضطرت المجلة أن تأخذ الصورة على الغلاف وتقول هتافات رغم الهزيمة .. دى أصالة شعبنا فى السودان .. » .

ومؤدى ذلك أن هذه الروابط الشعبية الوثيقة مهما اعترتها الهزات أو التوترات فإنها حتمًا تعود إلى ترابطها وتوحدها.

الأمر الثانى :

أن عدم قيام الوحدة بين شطرى وادى النيل فى أى صورة من صورها أو اهتزاز العلاقة بينهما دائمًا يرجع إلى عوامل خارجية تعوق وصول إرادة الجماهير السودانية إلى غايتها فى توثيق الروابط بينها وبين شعب مصر.

يؤكد ذلك أنه عند قيام اتحاد الجمهوريات العربية بين مصر وليبيا وسوريا وقفت مشكلة الجنوب السودانى عقبة أمام تحقيق إرادة السودان فى الانضمام إلى هذا الاتحاد. كما كان موقفه من مبادرة السلام راجع إلى ضغوط عربية فلسطينية

قادتها بعض عناصر فى المملكة العربية السعودية .

وإذا كان الرئيس السادات قد أقر الرئيس جعفر نميرى على أن مشكلة الجنوب ينبغى أن تحل أولا قبل الدخول إلى الاتحاد فما هى مشكلة الجنوب السودانى باختصار ؟ ؟

مشكلة الجنوب السودانى هى فى الأساس من صنع الاستعمار الإنجليزى حيث عمل على فصل جنوب السودان عن شماله ووضع العراقيل والقوانين والإجراءات الإدارية التى تمهد لإبقاء جنوب السودان فى عزله عن الشمال .. ووصل تدبير الاستعمار الإنجليزى ـ عندما أحس بقرب خروجه من السودان ـ أن حرض بعض أبناء المديريات الجنوبية ليقوموا بتحرر مسلح عام ١٩٥٥ حيث راح ضحيته عدد كبير من المواطنين .

ومعنى هذا أن مشكلة الجنوب السودانى ـ الذى كان يطالب بالاستقلال هى من صنع الاستعمار وأعوانه من المبشرين المسيحيين الأجانب الذين جعلوا العطلة الرسمية به يوم الأحد خلافا لباقى مدن السودان وأبعدوا ما كان به من قوات الأمن إلى الشمال ، كما أصدر ملنر عام ١٩٢٢ توصية مؤداها أن تكون إدارة جنوب السودان من أهالى الجنوب ، وفى نفس العام صدر قانون للرخص والجوازات ترتب عليه أن أصبحت كل مديريات الجنوب مقفلة يمتنع على أهالى الشمال دخولها أو البقاء فيها إلا بتصريح خاص .

كما صرح السكرتير الإدارى الإنجليزى بالسودان عام ١٩٣٤ بضرورة قيام دولة خاصة بالجنوب السودانى أو ضمه إلى دول شرق أفريقيا .

ولقد كان من نتاج ذلك أن تزايدت النزعة الانفصالية لدى جنوب السودان وإن استمرار الصراع حول هذا الموقف مما ترتب عليه تدهور الاقتصاد الوطنى لما تتكبده الدولة من نفقات باهظة لحفظ الأمن .

واستمر هذا الصراع بين الشمال والجنوب رغم تعاقب الحكومات الوطنية بعد الاستقلال إلى أن جاءت ثورة النميرى عام ١٩٦٩ وسعت إلى إيجاد الحل الدائم لهذه المشكلة بالقدر الذى يحقق وحدة أراضى السودان ويرضى أهالى الجنوب

فمنحتهم حكما ذاتيا فى إطار السيادة السودانية .

ولعله من المفيد أن نشير هنا إلى أن مصر قد وقفت إلى جانب السودان فى مشكلته الداخلية مع الجنوب إلى أن تم الاتفاق على الحل الذى أرضى جميع الأطراف دون الإخلال بوحدة السودان .

وللحقيقة نقول إن السودان لم يتخل يوما عن التزاماته القومية مع مصر فى حدود إمكانياته المتاحة وقدراته الممكنة ولقد وقف مؤيدا لكل القضايا الوطنية والقومية التى تقودها مصر حتى معركة عام ١٩٧٣ كان للسوادن كما يقول الرئيس : -

« لواء سودانى موجود فى سيناء مع القوات المصرية » ...

موقف مصر من الانقلابات فى السودانى :

تعرض نظام الحكم الحالى فى السودان إلى انقلابين عسكريين كبيرين كان من المقدر لكل منهما أن يطيح بنظام الرئيس جعفر نميرى ليحل محل نظام آخر يفرض على السودان سياسات مغايرة لخطه الذى التزم به وارتضته جماهيره الشعبيه وتعمل من خلاله .

الانقلاب الأول :

قامت به القوى الشيوعية عام ١٩٧١ بهدف الاستيلاء على السلطة فى السودان .

والمعروف أن الحركة الشيوعية قديمة فى السودان حيث تكون الحزب الشيوعى السودانى عام ١٩٤٦ وأخذ يعمل فى الخفاء تحت اسم « حدتو » أى الحركة السودانية الديمقراطية للتحرر الوطنى .

ثم انقسم هذا الحزب على نفسه قبيل عام ١٩٦٤ حين خرج عليه بعض أعضائه وكونوا حزبا جديدا أطلقوا عليه الحزب الشيوعى السودانى القيادة الثورية وكان هذا الحزب الأخير يتبع الحزب الشيوعى الصينى - وقد استطاعت هذه القوى الشيوعية أن تحصل فى انتخابات عام ١٩٦٥ على أحد عشر مقعدا .

وبعد حل الحزب الشيوعى فى السودان لم يتوقف نشاطه بل عمل على كسب

كل القوى الاشتراكية إلى جانبه وتكوين أحزاب تحت مسميات جديدة .. ومن ثم عندما ظهر الحزب الاشتراكى السودانى عام ١٩٦٧ كان معظم أعضاء أمانته العامة من الشيوعيين وكذلك كان الحال بالنسبه لحزب الجنوب الديمقراطى الذى ظهر علانية عام ١٩٦٦ .

وبنفس الأسلوب كون اليساريون حزبا ثالثا عام ١٩٦٨ تحت اسم حزب بالعمال والفلاحين .

وبقيت هذه الأحزاب الشيوعية الثلاثة تعمل علانية بالسودان حتى تم حلها بعد ثورة مايو ١٩٦٩ إلا أنه لم يتوقف نشاطها الخفى بين الجماهير .

وبناء عليه لم تكن تلك التيارات الشيوعية لتقبل بموقف نميرى منها فاستدارت تعمل على إسقاطه وقامت بالانقلاب الأول الذى تولى قيادته هاشم العطا .

فماذا كان موقف مصر ؟ .

عملت بكل جهدها على إحباط الانقلاب الشيوعى رغم تأييد الاتحاد السوفيتى له . وأعادت جعفر النميرى إلى مكانته على رأس السلطة الحاكمة فى السودان وفى ذلك يقول الرئيس السادات :

« فى عام ١٩٧٩ كما تذكروا قامت ثورة شيوعية ضده ـ أى ضد النميرى ـ ووقفنا احنا معاه فيها ورفضنا الاعتراف بالدولة الشيوعية التى قام رئيسها هاشم العطا فى ذلك الوقت ... وأنا قلت للسفير السوفيتى .. قلت له .. لن أقبل دولة شيوعية على حدودى . لأنه كان جانى السفير السوفيتى بتعليمات من موسكو علشان اعتراف بحكومه هاشم العطا قلت له آسف .. وظل السودان على علاقته الأخويه معانا ... » .

الانقلاب الثانى :

وحرضت عليه ليبيا بهدف إسقاط نظام جعفر النميرى المؤيد لمصر والمتعاون معها واستبداله بنظام آخر يعمل لحساب النظام الليبى والمعروف أن العلاقات المصريه الليبيه قد توترت فى اعقاب حرب ١٩٧٣ نظرا لمواقف القذافى المتشنجة والسطحية والتى لم تتعمق فى فهم السياسات المدنية والعسكرية وكيفية إدارتها ومن ثم راح

بعدها يبحث له عن دور فى مجال تدبير المؤامرات للدول المجاورة له .

ولقد كانت مصر وهى تتابع نشاط القذافى قد استطاعت أن تحصل على مخططاته فى السودان . فبادرت على الفور بإبلاغ الرئيس جعفر النميرى بتفاصيل ما يدبره ليتخذ الإجراءات الكفيلة بإحباط نواياه .

وعلى الرغم من ذلك فقد وقع الانقلاب بالفعل وظل نظام الرئيس النميرى مجهولا لعدة أيام كان على مصر بعدها أن تتحرك لإحباط هذا الانقلاب والقضاء عليه . وبالفعل نجحت مصر فيما سعت إليه وأعادت النميرى إلى الحكم مرة أخرى ليعاود الشعب السودانى مواصلة خطه الوطنى المتحرر .

وفى ذلك يقول الرئيس السادات :

« الانقلاب الثانى اللى عملته ليبيا .. إحنا أخطرناه ـ أى النميرى ـ بجميع تفاصيله ... ولكن جعفر لما طالت المدة شويه افتكر أن الموضوع انتهى وسافر بره وهو راجع عملوا العملية كما قلناها له بالضبط .

ودخلنا ... فى دى بقى تدخلنا فعلا ... اللواء السودانى اللى كان موجود .. قلت للنائب عمل كوبرى جوى .. لازم اللواء يوصل للخرطوم .. لأنى عارف أن العملية من ليبيا .. وعارف تفاصيلها وبعتها للنميرى ..

الموقف قعد ثلاثه أيام مش متضح ... فقومت اللواء السودانى فى كوبرى بيننا وبين الخرطوم ١٢ ساعة .. على ما صبحوا الصبح السودان لقت اللواء السودانى زائد عربات مدرعة من عندنا وذخيرة من عندنا ... سيطروا على الموقف وانتهى الانقلاب لصالح نميرى ... » .

وهكذا يتبين موقف مصر المبدئ من السودان وشعب السودان وإذا تساءل أحد عن أسباب هذا الموقف المصرى ..

فسيجد الإجابه فى ثلاثة نقاط محددة :

١ ـ إن السودان يمثل العمق الاستراتيجى لمصر وأن أمن السودان واستقراره يمثل أحد الدعامات الرئيسية للأمن والاستقرار المصرى . وأن قيام أى نظام عميل فى السودان سوف يشكل بالقطع تهديدا للواقع فى مصر .

٢ ـ إن الروابط الوثيقة بين شعبي البلدين والتي تضرب بجذورها إلى أعماق التاريخ والتي تتجسد عمليا فى مواقف الشعب السودانى من قضايا المصير فى مصر تفرض علينا واجبا قوميًا تجاه هذا الشعب بأن نهب لنجدته من عوامل قهر إرداته وفرض الوصاية عليه .

٣ ـ إن دراسة مستقبل العلاقات بين شعبين تربطها مقومات الحياة والتاريخ والحضارة يشير إلى حتمية توحدهما معا بغض النظر عن الأشكال الدستورية ـ لتوحد مصالحهما الحالية والمستقبلية مما يتعين معه حماية هذا المستقبل من العبث به بفعل قوى دخيلة تنحرف باتجاهات الحركة الطبيعية لتلاقى هذين الشعبين .

موقف السودان من مبادرة السلام :

لعل السؤال الذى يطرح نفسه بعد العرض السابق لماذا كان رد فعل السودان والنميرى لمبادرة السلام مناقضا لمواقف مصر منه ؟ ..

ودعونا ننطلق فى الإجابة على هذا التساؤل من حقيقة مؤداها أن السياسيه الدولية بالذات هى عملية توازن بين اختيارات متعددة . وأن الضغوط الداخلية أو الخارجية قد تفرض موقفا مرحليا تكتيكيًا ينبغى المرور به للعودة إلى الموقف الاستراتيجى الأصل .

والنميرى فى هذا الموقف قد وجد نفسه بين اختيارين :

ـ اما أن يقف إلى جانب الموقف المصرى الصحيح ويخسر دول الرفض العربية التى تساعده اقتصاديًا فى ظروف هو فى حاجة إلى ما تقدمه له هذه الدول من مساعدات .

ـ وإما أن يقف إلى جانب دول الرفض العربية كى يحصل على احتياجاته المادية الضرورية ويتخلص عن موقفه المؤيد لمصر .

وفى البداية لم يستطع النميرى أن يختار .. فوقف على أرض محايدة لا يهاجم دول الرفض ولا يؤيد مصر .

واعتبر أنه بذلك قد أقام توازنا ما فى موقفه بين الطرفين يحقق به مصالحه الوطنيه ولا يخسر به مصر .

وقدرت مصر للنميرى صعوبة موقفه .

غير أنه فى أعقاب مؤتمر دول الرفض فى تونس نتيجة للضغط الذى مورس على النميرى من قبل الأمير فهد ـ ولى عهد المملكه العربيه السعودية ـ وإغرائه بمعونات مالية ضخمة تغير الموقف السودانى مطالبا بالالتزام بمقررات بغداد التى تدعو إلى مقاطعه مصر..

وعلى أثرها تمت عملية سحب السفراء ابتداء من جانب الأشقاء فى السودان ويحكى الرئيس السادات هذه التطورات بقوله :

« جاء مؤتمر تونس .. وسافر الأمير فهد إلى المؤتمر وهو مازال يبشر بأن مصر والسادات قد انتهوا نتيجه لقطع العلاقات مع مصر.. وكل ما كان يرجوه من ذلك أن يزيد من دائرة المقاطعة عن طريق الضغط على السودان والصومال لينضموا إلى باقى العرب فى هذا الموقف .

واستمر الأمير فهد فى مخططه وقابل زياد برى والنميرى وطلب منهما قطع العلاقات مع مصر وعرض عليهما معونات مالية كبيرة مغرية..

فوجئنا بأن السودان بعد عودة النميرى مباشرة قام بحملة إعلامية ضخمة تدعو إلى الالتزام بقرارات بغداد ... وانتقلت هذه الحملة ضد مصر إلى داخل مجلس الوزراء نفسه .. ولم يتدخل النميرى لإيقاف هذا التحرك ... وأعطيت تعليماتى بألا نرد على هذه الحملة وأن نتمالك أعصابنا حتى لا نوسع شقة الخلاف .

ولكن بلغنا أن السودان تفكر فى سحب سفيرها من مصر بحجة تعيينه وزير دولة للخارجية دون أن يعين بديل له .. وفور علمنا بهذه النية طلبت من سفيرنا أن يقابل النميرى ويبلغه أننا على علم بما يدبر وبالتالى سنبادر نحن من جانبنا بما يريحه .. وأستاذن السفير المصرى فى السفر إلى القاهرة وسحبت السودان سفيرها من مصر وعينته وزيرا للدوله وتجمد الموقف على ذلك .. » .

كانت تلك حكاية السودان مع مصر فى ضوء مبادرة السلام كما رواها الرئيس السادات بتفصيلاتها بما لا يحتاج إلى تعليق ومرت الأيام..

وطلبت السودان عودة العلاقات مع مصر..

وعادت العلاقات الطبيعية ... وسافر الرئيس السادات إلى السودان بناء على دعوة وجهت إليه ..

ويحسم الرئيس السادات قصة العلاقات المصرية السودانيه بتركيز شديد عندما يقول :

« السودان بالنسبه لمصر مسأله حياة أو موت .. لأنه فوق علاقة الدم والمصاهرة .. مياه النيل .. دى الحياة بالنسبة لنا .. ودى مفيهاش مناقشة .. أى إنسان حيتعرض للسودان من أول دقيقة حنكون جنب السودان على طول .. » .

ثانيا : لبنـــان

تجد المشكلة اللبنانية مصادرها الأصليه من الأوضاع المعقدة داخل لبنان .

فالتركيب الاجتماعى داخل لبنان يقوم على أساس طائفى دينى . إذ تتعدد هذه الطوائف والمذاهب فى لبنان بحيث يصل مجموعها إلى حوالى ٢٧ سبعه وعشرين طائفة ومذهبًا منها على سبيل المثال : الأرثوذكس والمارون والكاثوليك والأرمن الأرثوذكس والأرمن الكاثوليك والأرمن البروتستانت والسريان الكاثوليك والسنيون والإنجيليون والكوان واللاتين ثم الشيعة .. الخ .

وتبعا لهذا التعدد الطائفى تتعدد الاتجاهات والأحزاب والهيئات السياسية بحيث بلغت فى مجموعها حوالى ٣٨ ثمانية وثلاثون حزبا وهيئة من بينها الحزب التقدمى الاشتراكى والحزب الشيوعى اللبنانى ووحدة القوى الثورية القطرية وحزب البعث والحزب الديمقراطى الهانشاق واتحاد الكتاب واتحاد طلاب الجامعه واتحاد الشباب الديمقراطى وجبهه التحرر العمالى .. الخ .

ومن هنا يتضح أن لبنان يضم كافه الطوائف والمذاهب من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وكل منهم يستخدم قدرته الاجتماعية استخداما سياسيًا صرفا .

ولذلك نجد على الصعيد اللبنانى جملة من القوى المتنوعة وجملة من القضايا المعقدة .

فعلى صعيد لبنان قوى وقواعد سياسية لمختلف دول العالم ولمختلف الدول العربية وحتى لمختلف الأحزاب السياسية العربية فضلا عن القوى المحلية بتصنيفاتها الرجعية والديمقراطية والوطنية والشيوعية .

وعلى هذا الصعيد ذاته تنعكس قضايا الصراع العالمى كلها تقريبا إذ يعد لبنان مركزا رئيسيا لكل النشاطات السياسية الخفية والمعلنة .

يضاف إلى ذلك الأوضاع الاقتصادية المتباينة داخل لبنان فهو رغم ثراء القلة يكابد بعناء شديد أزمات اقتصادية عامة دون أن يستطيع أن يجد لها علاجا حاسما يرفع مستوى معيشة القواعد الجماهيرية الواسعة .

ومن جهة أخرى يبدو لبنان دائما عاجزا عن حماية نفسه لقصور الإمكانيات العسكرية وانخفاض مستوى الجيش تدريبا وتسليحا إلى حد لا يستطيع معه حتى توفير الأمن الداخلى الكامل وإلى جانب ذلك وجد الصراع الأيدولوجى مكانا له داخل لبنان إلى حد انطلقت منه دعاوى الانعزالية عن العالم العربى بحجة وضع لبنان الخاص المتمايز عن غيره من البلدان العربية . والى حد إظهار التقسيم الطائفى للبنان وكأنه مرادف للانقسامات الدينية .

وقد وجدت الصراعات الداخلية نشأتها من هذا الواقع المعقد التى استغلته كل القوى والتيارات الداخلية والخارجية لضرب أمن ووحدة لبنان .

وبغير تفصيلات ... انتهى المطاف بأن أعلن الرائد سعد حداد قائد الميلشيا المسيحية فى جنوب لبنان وأحد المنشقين على سلطة الدول قيام دولة لبنان الحرو المستقل وكان ذلك فى السابع عشر من أبريل عام ١٩٧٩ وكانت حجة الرائد سعد حداد أن ـ السلطات اللبنانية تسعى إلى تسليم لبنان إلى سوريا .

ولم يكن هذا رأى سعد حداد وحده بل لقد أرجعت بعض التيارات وتنظيمات السياسة اللبنانية ما يحدث فى الجنوب اللبنانى إلى وجود قوى خارجية دخيلة على الساحة اللبنانية وهى القوات السورية والفلسطينية التى تسببت فى تمزيق جيش لبنان الواحد وزيادة حدة التوتر والحرب الأهلية اللبنانية .

ووقتها مباشرة قال الرئيس السادات محذرا ومنذرا هذه القوى التى تعمل من خارج لبنان عبارته الشهيرة :

« ارفعوا أيديكم عن لبنان »

وكان ذلك منذ سبع سنوات أى منذ بدايات الأزمة اللبنانية .

تدخل سوريا واشتعال الأزمه اللبنانية :

بعد حرب عام ١٩٧٣ وفض الاشتباك الأول والثانى وانكشاف حكومه البعث السورية أمام شعبها خاصة بعد أن حققت مصر انتصارات رائعه على الجبهة المصرية واستثمرت نتائج الحرب فى تحقيق مكتسبات جديدة ترمى إلى تحرير باقى الأراضى العربية المحتلة وإقرار الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وجدت السلطات الحاكمة فى سوريا نفسها أمام موقف يهدد وجودها كله فاستدارت تبحث عن بطولة وهمية تغطى بها عجزها إبان حرب ١٩٧٣ وتلفت بها نظر الشعب السورى عن ضعف حكومته وهزيمتها ولم تجد أمامها سوى لبنان .

وفى شرح هذه التطورات يقول الرئيس السادات :

« الحكايه ليست الا العقد .. عقد الهزيمة والنقص ... وعقد التجارة السياسية اللى عند البعث . قال الأسد الله أثبت وجودى فى المنطقة ازاى ؟ آخذ الحيطة المايلة لبنان .. مافيهاش لا جيش ولا دوله .. ولا حاجه أبدا .. قال لك آخذ لبنان .. وده كان حلم من زمان عنده .. والفلسطينين جاهزين وانتم عارفين سوريا ممشياهم على كيفها .. فيبقى لبنان سوريا وبعدين الفلسطينين معاهم .. وتبدأ سوريا الكبرى .. » . ومعنى ذلك أنه كان لحافظ الأسد هدفين متوازيين من دخوله إلى لبنان .

أولها :

التنفيس عن العقد التى عانى منها نتيجه لعدم قدرته على تحقيق أى نصر أو مكسب دون أن تقدمه له مصر وذلك بأن يتاجر سياسيًا على الشعب السورى بأن يثبت له على أرض أخرى ضعيفة .. وبغير حق .. أنه قوى وقادر على أن يحرز النصر .

وثانيهما :

أن يعيد إلى الأذهان الأحلام القديمة فى إقامه سوريا الكبرى وذلك بتمزيق لبنان وتحطيمها حتى يسهل له السيطرة عليها واحتوائها ثم من بعدها يستقطب الفلسطينيين بحقوقهم التاريخية فى الضفة الغربية لنهر الأردن وعندها تبدأ سوريا الكبرى من سوريا ولبنان والأردن .

غير أن الاسد فشل فى تحقيق أى من الهدفين السابقين ويقول الرئيس السادات ذلك :

« هو صمم معركته على أسبوع فى لبنان .. الأسبوع بقى له سبع سنين النهاردة .. بالضبط .. حشد كل شيء .. دخل يحمى الفلسطينين ضربهم .. يحمى المسلمين ضربهم .. يحمى المسيحيين فى وقت من الأوقات ضربهم .. يحمى التقدميين قتل كمال جنبلاط ... » .

ثم يستطرد الرئيس محددا موقفنا المبدئى من لبنان بقوله :

« انتهى الوضع فى لبنان إلى اللى انتو شايفينه دلوقت .. وأخطر ما فيه حاجه ... إنه فتح الباب لإسرائيل أن تتدخل .. وطلعنا احنا .. ببيان شجبنا فيه موقف سوريا وإسرائيل .. ده تدخل خارجي من الاثنين ..

لأن الحل فى لبنان ذى أنا ما قلته من سبع سنين - ارفعوا أيديكم عن لبنان » .

وفى بساطة يتضح أن الحركة الانفصالية فى جنوب لبنان قد اتخذت من تدخل سوريا ذريعة لما تقوم به مدعية أنها تحمى لبنان من أن تأكله سوريا .

كما يتضح أن كثيرا من التنظيمات السياسية ترى فى الوجود السورى أملا رئيسيا فى تمزيق وحدة لبنان وفى تفتيت قوته العسكرية وفى إثارة الحرب الأهلية .

ويؤكد هذه الحقيقه الواقع المرئى الآن فى لبنان فبعد سبعة أعوام لا تزال الحرب الأهلية دائرة ولا يزال الدمار والخراب ونهش فى لبنان رغم تواجد القوات المسلحة السورية التى تزعم أنها تعمل على احتواء الأزمه وحماية الأمن اللبنانى .

ويبقى بعد تجربة سبعة أعوام فشلت خلالها سوريا أن تحقق أى هدف لنفسها أو للبنان أن تنسحب وترحل وتترك لبنان للشعب اللبنانى .

ويبقى على الزعماء اللبنانيين أن يجمعوا أمرهم ويوحدوا كلمتهم ويطالبوا القوات السورية بالانسحاب أى يفرضوا على سوريا الانسحاب .

ثالثا : فرنســـا

ألمح الرئيس السادات فى لقاءاته بالشباب إلى الانتخابات الفرنسية الأخيرة وإلى مدى تأثيرها على العلاقات المصرية الفرنسية فقال :

« لقد كانت المعركة الانتخابية فى فرنسا على رئاسه الجمهورية نموذجا لمعارك الدول الديمقراطية فى عصرنا هذا .. وهى المعارك من أجل رفاهية الإنسان ... وهذا ما حاولت أن أوضحه لشعبنا فى مصر .. فالديمقراطية ليست خطبا رنانة .. وإنما هى السعى من أجل أن يحقق كل شاب ومواطن فى بلدنا آماله وأحلامه .. ومن أجل فتح الفرص المتاحة لتحقيق الذات كما يريدون .. » .

والحقيقة كما أشار إليها السيد الرئيس أن الانتخابات الفرنسية قد امتدت إلى كل أرجاء الأرض الفرنسية طوال عدة أسابيع فى إطار من الديمقراطية الحقيقية التى انحازت فيها فرنسا إلى ما تريده .. أو بتعبير أدق انحازت فيها كل فئه أو كل طبقة من طبقات المجتمع إلى ما تريد فى مواجهة ديمقراطية اتسمت بالوعى وبالنضج وبالاتزان وبالانضباط الذى لا تشهده إلا الدول العريقة فى الديمقراطية .

ومع ذلك ينبغى أن نقول إن نتيجة انتخابات الرئاسة الفرنسية لم تكن قضاء وقدرا فلقد كانت المعركه ساخنة حاول فيها أنصار جيسكار ديستان امتصاص أكبر قدر من الأصوات ومحاصرة مرشح اليسار فرنسوا ميتران غير أن قوى اليسار استطاعت اختراق حاجز الحصار وأن تحرز نصرًا دفع بميتران إلى الرياسة الفرنسية .

ولقد سجلت المعركة الانتخابية فى فرنسا انحسار تأثير الديجوليين وبروز قوى اليسار وبالذات الحزب الشيوعى والحزب الاشتراكى وقطاع من الراديكاليين اليساريين أى أن حركة اليسار قد بلغت من القوة فى المجتمع الفرنسى إلى حد تغلبت فيه على كل القوى التقليدية المناهضة لها فى معركة الرئاسة .

هذا الانبعاث الجديد لقوى اليسار لم تشهد فرنسا مثيلا له منذ الحرب العالمية

الثانية حيث تكونت الجبهة الشعبية عام ١٩٣٦ وحشدت قوى شعبية من ورائها لم تتكرر فى تاريخ فرنسا المعاصرة .

ويجئ هذا الانبعاث نتيجة إحساس الجماهير الفرنسية بالحاجة إلى تغيير الوجوه التقليدية فى السلطة فى ظروف تتفاقم فيه المشكلات الاقتصادية فى صوره ارتفاع أسعار المعيشة وتعاظم موجات التضخم واختلال ميزان المدفوعات والميزان التجارى وتعقد المشاكل النقدية وكل تلك المشكلات يتعذر إيجاد الحلول لها دون تغيير جذرى فى كل معطيات الموقف الاقتصادى وكان ذلك بالطبع هو برنامج اليسار فى الانتخابات مما يصعب مقاومته أو التصدى له ببرنامج بديل وخلاصة ذلك أن معركة الانتخابات الفرنسية فى إطارها الديمقراطى قد قامت على برنامج يستهدف رفاهية الإنسان الفرنسى وحل مشكلاته وتطوير حياته .

وبمعنى آخر فإن قوى اليسار ـ وكانت تمثل جانب المعارضة طوال السنوات الطويلة الماضية ـ لم تدخل المعركة سعيا إلى السلطه لمجرد السلطه وانما بهدف تحقيق برنامج اقتصادى شامل عرضته على الجماهير الشعبية لتقول رأيها فيه فإن قبلته صوتت إلى صالح ممثل اليسار لتتيح له فرصه تنفيذه .

ثم يبقى التساؤل : **هل تتأثر مصر بتولى فرنسوا ميتران مقاليد السلطه فى فرنسا ؟**

ولكى نعرف الإجابة على هذا التساؤل ينبغى أن نعرف أولا أن لفرنسا خصائصها المتميزة عبر تاريخها كله لأنها أقدر من غيرها من دول أوربا على أن تكثف فى تحولاتها الداخلية ما يرمز لحقائق تمتد فى أحوال كثيرة لنطاق أوسع وتصلح كمؤشرات لاتجاهات تعم غرب أوربا ككل ثم تنعكس على كثير من دول العالم الأخرى .

ودليلنا على ذلك أن الديجولين كانوا رمزا لاتجاه أوربى نحو الاستقلال بأوربا عن الهيمنة الأمريكية بعد أن أعادت أوربا بناء اقتصادها بعد الحرب العالمية الثانية وكان اتجاها أن تعيد بناء علاقاتها الدولية بما يحقق لها شخصية جديدة تتلاءم مع وضعها الجديد وبدت الديجولية كارهاص نحو كيان أوربى مع الاحتفاظ بالشخصية الوطنية لكل دولة داخل هذا الكيان .

وبانزواء الديجولية الآن تتكشف صوره أخرى هى زيادة الاستقطاب بين اليمين واليسار بين اتجاهات ترى أنه بعد أزمة البترول الناتجة عن حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ يتعين التنسيق والتوافق مع الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها تملك علاقات ذات تأثير مع الدول المصدرة للبترول فى الشرق الأوسط . واتجاهات أخرى يسارية ـ ترى بأن نهضة أوربا رهن بمشاركة الشعوب الأوربيه ذاتها فى بناء علاقاتها وصياغة تقدمها بدلا من أن يكون هذا المصير رهنا بمصالح الشركات المتعددة الجنسيات التى تستبد بمصائر عالم الغرب وفقا لاختلاف الكتل الإقليمية التى تشكله .

وفى ظل هذا الواقع الذى تلعب فرنسا دورا مؤثرا فيه تحرص فرنسا على إقامه علاقات طيبة مع المنطقة العربية باعتبارها منطقة تمثل لها ولأوربا كلها مصالح حيوية .

ولكن ماذا عن مصر بالذات ؟

يقول الرئيس السادات عن مستقبل العلاقات المصرية الفرنسية فى عهد فرنسوا ميتران ما يلى :

« موقف مصر وخطها السياسى .. خط واضح ومحدد .. مستقيم وقوى .. الأمر الذى وفر لها كل مقومات الدولة التى تتمتع بالاستقرار والأمن والأمان وسط منطقة الشرق الأوسط التى تفتقد كل دولها لبعض هذه العوامل أو كلها .. هذا الوضع المميز لمصر جعلها القوة الأولى فى المنطقة القادرة على الحسم والتى تتقرب إليها كل دول العالم وتحسب لها حسابا يتفق مع مالها من دور ومكانة . »

وهكذا يمكن القول بأن العلاقات الطبيعية التى تتسم بالصداقة بين مصر وفرنسا لن تتغير بتغير القيادة الفرنسية وذلك للاعتبارات الآتية :

١ ـ أن مصر تعد مفتاح الدخول إلى منطقه الشرق الأوسط بوصفها تمثل أكثر الدول حضارة وأمنا واستقرارا فى المنطقة الأمر الذى يعكس تأثيرها الإيجابى على الدور السياسى للمنطقه فى علاقاتها بأوربا على وجه العموم وبفرنسا على وجه الخصوص .

ومن ثم فإن فرنسا لكى ترعى مصالحها الحيوية فى المنطقة فإنها لا تستطيع ذلك إلا مرورا بمصر سواء كان على رأسها جيسكار ديستان أو فرنسوا متيران .

٢ ـ أن الخط السياسى المصرى محدد وواضح ويقوم على أسس مبدئية لا تتغير بتغير الأشخاص الحاكمين فى أى من دول العالم ذلك أنها تتعامل مع الشعوب وانطلاقا من المصالح المشتركة بين البلدين وطالما أن هذه المبادئ لم تتغير وطالما أن المصالح المتكافئة قائمة ومتطورة فليس هناك مبرر لتغير السياسة بين البلدين .

٣ ـ إن الشعب الفرنسى تربطه بالشعب المصرى صداقة تقليدية قديمة تعمقت فى الآونه الأخيرة بالنظر إلى مواقف مصر الواضحة والصريحة والتى تقوم على قيم أخلاقية فى مجال السياسة الدولية وعلى وسائلها الحضارية المتقدمة فى حل المشكلات العالمية والمحلية - ومن ثم فإنه لا ينتظر أن يسمح الشعب الفرنسى إلا بأن تتعمق صداقاته وعلاقاته بالشعب المصرى .

وتأكيدا لهذه العوامل يحسم الرئيس السادات هذه الجزئية فى مقولة محددة يعبر فيها عن رؤيته لمستقبل العلاقات المصريه الفرنسية كنموذج فيقول :

« تحظى مصر وقيادتها بإعجاب الشعب الفرنسى وهذا ما عكسته تعليقات صحفهم تقديرا لمواقف مصر التى تلتزم بالقيم والأخلاقيات الأصيلة المنبثقة من تاريخها وتطبقها فى كل تصرفاتها فى هذه الأيام بوعى وصدر منفتح .. فإذا وضعنا فى اعتبارنا هذه العوامل .. وهى أن مصالح فرنسا الأساسية توجد بشكل أساسى فى العالم العربى .. وأن إعجاب الشعب الفرنسى بمصر وبقيادتها المتفتحة يعزز العلاقات الطيبة بين الشعبين فإن النتيجة التى نخرج بها هى أن الرئيس متيران سوف يعمل على تدعيم هذه العلاقات إداركا منه لحقيقة أن مصر هى الدولة العربية التى تمتلك مقومات الدولة والقادرة على الحسم فى المنطقة .

وهكذا يتضح أن الفلسفه التى بنيت عليها علاقات مصر الخارجية من الناحية النظرية والتطبيقية ما هى إلا انعكاس لواقع مصر الحضارى فكريًا وثقافيًا واجتماعيًا وأنها تعبر حقا عن بصيرة واعية ورؤية مستقبلية لحركة وتفاعلات المجتمع الدولى .

وأنها تنطلق كلها من مبدأ تحقيق المصلحة الوطنية والقومية دون تهاون فى حق أو تفريط فى مبدأ.

ومؤدى هذا التحليل الموجز لا يعنى إلا مجرد الإشارة لبعض المواقف فى السياسة الخارجية حدث وأن تناولها بالإشارة الرئيس القائد فى أحاديثه للشباب. ولكن سوف يظل للسياسه الخارجيه المصريه والاستراتيجية والتكتيك الذى يحكم حركتها الدور الرائد والمتجدد الطليق فى الحركة صوب الاتجاه الذى يحقق الأمن والأمان الوطنى والذى يؤكد فى نفسى الوقت سيادة مصر واستقلالها وقدرتها على التأثر والتأثير فى مجريات السياسة العالميه فى كل دوائراها أو تجمعاتها الدولية.

... ثم

بعد هذا الطواف المتأمل فى فكر الرئيس القائد والمستخلص من واقع تجربته الشخصية ومعاناة نصاله الطويل من أجل مصر والإنسان لعله يكون من المفيد أن نقف وقفة أمام بعض الدروس المستفادة من حصيلة خبرة الرئيس القائد التى عرضها على أبنائه من شباب مصر..

وإن قيل إن العرض السابق بما احتواه من عمق ووضوح مقولات الرئيس فى كل الجوانب التى أشار إليها ليس فى حاجة إلى مزيد بيانه .. أو لم يعد يتعين على شباب مصر أن يعيها وأن يتوارسها وأن يترسم منهجها فى مستقبل حياته وحركته من أجل مصر..

فنحن مع هذا القول ثقة فى ذكاء القارئ وتقديرًا لوعيه وإحساسا برغبته فى أن يستلهم من تجربة وطنية ناجحة علامات تضئ له طريق المستقبل الواعد بالعمل الخلاق .. والجهد الوطنى الشريف.

غير أننا لنستأذن فى أن نلمح رغم ذلك إلى بعض الدلالات الهامة التى يمكن استخلاصها من أحاديث الرئيس التى أدلى بها إلى شباب مصر..

- أولا : إن الإنسان المصرى الجديد هو الدعامة الأساسية لتقديم المجتمع وتطوره .. ذلك إن البناء المادى لا يمكن إحداثه بغير إنسان قادر عليه وعلى الإمساك بأحدث أساليب العلم والتكنولوجيا فيه خاصة وأن أهم مصادر الطاقة الوطنية فى مصر لا يجئ إلا من الإنسان ومن عمل الإنسان .. والقوى البشرية هى الرصيد الهائل الذى يتحتم استثماره لتحقيق طموحات هذا الشعب.

- ثانيا : إن بناء الإنسان المصرى الجديد لا يتأتى بقرار فوقى فى إطار كن فيكون .. وإنما صياغة الإنسان الجديد تحتاج إلى جهد مخطط وعمل دائب

ومثابرة مستمرة .. على مستوى الدولة التى توفر المناخ الضرورى لانطلاق الملكات الفردية .. وعلى مستوى الفرد الذى يتعين عليه تطوير ذاته داخليًّا عقليًّا ونفسيًّا وروحيًّا وجسديًّا بالقدر الذى شكيشكل فيه تكاملا يتكيف مع واقعه ثم ينتصر عليه ليرتقى به فيما بعد.

- **ثالثا** : إن البناء الداخلى للإنسان الجديد هو المدخل الصحيح لتوازن الإنسان الفرد ثم هو الباب الواسع للدخول منه إلى توازن المجتمع ككل .. فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .. وعندما تتعارك وتتوازن القيم المادية مع القيم الروحية فى وجدان المجتمع انتظمت مسيرته وتساقطت مشاكله .. واقتربت أهدافه .

- **رابعا** : إن بناء الإنسان الفرد على نسق جديد يتلاءم وروح العصر وطبيعة الواقع الذى يعيشه المجتمع ليس غاية فى حد ذاته بقدر ما هو وسيلة لتعبئة القوى الاجتماعية صوب هدف مشترك ويجهد واع مخطط وعلى طريق غايات وطنية عليا تتطلع إليها الإيرادات الكلية للجماهير الشعبية دون نغمات فردية شاذه تتسرب من بين ثغراتها جهود فى دروب فرعية لإطائل من ورائها ولا عائد .

- **خامسا** : إن الإنسان وهو يبنى ذاته داخليًّا يجب أن يستشعر فى أعماقه أن روح الله فيه وأنه خليفته على أرضه ومن ثم يتعين عليه أن يكون قويا كما أراده الله مستمسكا بكل المثل والقيم العليا كما أراده الله .. إيجابيا فى الحياة ومتفاعلا معها ومن أجلها كما أراده الله ..

- **سادسا** : إن حركة الإنسان فى الحياة والمجتمع لا يمكن أن تتسق مع الزيف أو خداع النفس والآخرين وإنما يتحتم أن تقوم على الصدق .. الصدق مع النفس أولا ومع الله ثانيا . الصدق مع النفس فأن يكون الإنسان قدوة فى فكره وسلوكه وحركته ومتسقا مع إرادته وفكره ولا يكون إمَّعه يقول إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت والصدق مع الله فأن يستمسك بمنهج السماء السمح الذى خلق الإنسان ليعمر الأرض ويعيش مع الآخرين فى تكافل اجتماعى ينمى الحياة ويجملها ويرقيها .

- **سابعا** : إن دور الإنسان فى خلافته على الأرض ينبغى أن يتسم بالصبر الواعى المدرك لحقائق الأشياء ومتغيراتها وإنه لا يمكن لشىء أن يأتى فجأة أو يتحقق بالرغبة ومجرد الأمانى وإنما العمل الدائب من حول المشكلات والمثابرة على حلها يحقق الهدف فى النهاية مهما طال بها الزمن .

- **ثامنا** : إن مشكلات مصر المتراكمة الصعبة والتى وصلت بها إلى حد الصفر فى اقتصادها قد أمكن بالصبر الواعى والعمل المخطط تخطيها وتجاوزها والانتصار عليها .. وبدلا من دخول مصر إلى مرحلة الإفلاس دخلت مصر عهد الرخاء .. بالصبر والعمل .

- **تاسعا** : إنه لا يمكن لشعب مصر أن يعيش حياته على معونات تأتى من خارجه أو على مساعدات يصدرها إليه غيره .. لا يمكن لشعب مصر الحر الحضارى أن يعيش عاله على الآخرين .. وإنما لا بد حتما أن يعتمد على ذاته وعلى مقدراته وعلى جهد أبنائه الشرفاء المخلصين ليبنى حضارته الجديدة . من أجل الإنسان الجديد .

- **عاشرا** : إن الجهد الخلاق من أبناء مصر ليس عملا ماديا مجردًا يؤتى ثماره ما لم يكن هناك إيمان قوى يوازيه بإرادة الله وتوفيقه وصداقة الإنسان مع الله هو الملهم والمرشد والمعين .. وبقدر جهدنا وإيماننا بالله وبأنفسنا تكون الحياة حرة كريمة .

- **حادى عشر** : إن السياسة المصرية لا تقوم كرد فعل للأحداث ولا تقوم على هامش الحركة الاجتماعية والدولية وإنما هى حسابات مستقبلية مدروسة ومخططة تتطلع إلى المستقبل باحتمالاته ومتغيراته وتتهيأ له وتعمل من أجله فلا تفاجأ بما لا تتوقعه ولا تدخل فى دوَّامات لا تعرفها وإنما يكون خطوها إلى المستقبل على ضوء حسابات علمية وموضوعية تكتشف لها الطريق الصحيح .

- **ثانى عشر** : إن مقومات التطلع الاجتماعى فى مصر القائم على الديمقراطية

وسيادة القانون يسعى إلى الرأى والرأى الآخر ويدعوا إليه ولكنه بمنطق العلم والحضارة يرفض الفوضى واستثمار الديمقراطية لضرب الديمقراطية ذاتها ولتفتيت الوحدة الوطنية كلها .. ذلك أمر لا يقبله المجتمع ولا تحتمله ظروف التطور الذى نعيشه .

- **ثالث عشر** : إن الإنسان المصرى الجديد ـ ممثلا فى هذا الجيل من شباب مصر ـ مطالبا بأن يتخطى رواسب الماضى وممارساته وأن يرفض الأفكار الجامدة التى لاتماشى روح العصر ولا تعرف كيف تتعامل معه بأن تتصدى بروح الوطنية العملاقة لكل دعاوى التمزق أو التفتت أو الدوران على معتقدات لا يمكن أن تنمو أو تنبت فى تربة هذا المجتمع .

- **رابع عشر** : إن مرحلة التطور الذى يعيشها مجتمعنا لاملك يمكن اجتيازها إلى أفق المستقبل إلا بالشباب .. وجهد الشباب .. وفكر الشباب .. ووعى والتزام الشباب الوطنى .

- **خامس عشر** : إن عصر السلام والرخاء والديمقراطية فى حاجة إلى من يعيشه ويدافع عنه ويحقق انطلاقه .. والقوى المهيأة اجتماعيا لتحقيق هذه المستهدفات هى بغير شك قوى الشباب صاحبة الحق والمصلحة فى هذا العصر .. الذى جاهد وناضل من أجل الوصول إلى عتباته من سبقوه .. فليستكمل معهم هذا الشوط الصاعد من نضال شعبه من أجل غد جديد وحياة جديدة .

* * *

كانت تلك بعض الدلالات والدروس المستفادة التى شئنا أن نلمح إليها رغم وضوحها .. ونحن على يقين من أن شباب هذا الجيل الذى عايش مصر النصر .. ومصر الديمقراطية .. ومصر السلام .. ومصر الرخاء .. لقادر على أن يمسك مكتسباته ويحمى منجزاته ويبنى من فوقها .

إن شباب هذا الجيل الذى صقلته التجربة والمعاناة لقادر بحق على أن يكون

لمصر ضد المشككين والمزايدين ودعاة الفرقة والأفكار الشاذة والمستوردة .

إن شباب هذا الجيل الذى يتطلع بعميق وعيه إلى مستقبل واعد له ولشعبه وأمته ويناضل فى غير هوادة من أجل تحقق أهدافه الكبرى فى حضارة عصرية ونهضة جديدة سوف يكون بلا ريب زاد مصر وعدتها وأملها فى أن يعيش لها ولتقدمها من خلال ذات قوية متكاملة جديدة تعرف طريقها بغير توقف .

فإلى الأمام دائما شباب مصر من أجل مصر

والله لا يضيع اجر من أحسن عملا .

عزيزى الشـاب :

فى رحلتنا الفكرية مع الرئيس القائد من خلال أحاديثه لشباب مصر..
كان من المقرر أن يشتمل هذا الكتاب على شرح وتحليل للقاء الخامس للسيد الرئيس مع أبنائه من الشباب .

غير أنه لأسباب خارجه عن أرادتنا لم نتمكن من الحصول على أصل هذا الحديث .

ونحن نَعِد أن نفرد كتيبًا خاصًا لهذا اللقاء فور حصولنا عليه لتكون الفائدة أعم وأشمل ولتكون معطيات فكر الزعيم القائد متكاملة فى وجدان وعقول شباب مصر.

وإلى اللقاء مع هذا الكتيب ..

فهـــرســت

صفحة



مطابع الشروق